رواية

كيوثاء
(بزوغ اللون)

سليم بركات

البريق الذي التمع على الأدراج المغسولة برذاذ الخريف ، قسَّمَ خَتْمَه نصفين بين آثار « ميدو » المبعثرة على رقعة معناها الحجريِّ . لسانٌ صغير تدلَّى من فم الغيم ـ لسانُ نورٍ بلَّلَ الأدراج التسع والتسعين ، فالتمعت بالعافية ذات الأثداء المندلقة ملآى على أفواه الشجرات الزرقاء، المحيطة صفَّيْن بالأعمدة القديمة المكسورة، المتناثرة من نهاية الأدراج حتى ساحة الخان المرصوفة بالحجر الرمليِّ الأصفر.

الرجال السبعة، الذين عبروا الساحةَ ، ممسكيْنَ بأرسان دوابهم، أبقوا أبصارَهم ـ أبصارَ الكمائن العريقة على الشجرات يَصفُّونها لأنفسهم بلسان العَجَب الصامت : هي زرقاء، أو تشرَّبَ لحاؤها وورُقها بنَفَسٍ أزرق من رئة اللامعلوم النَّديم. أكثرُ ورقها مبعثر، بإشارة من جواذب الخريف لأرواح النَّبات، على المَعْبَر وحواليه، والقليل الباقي متشبثاً بالغصون يعرف أن الخفقة الأخيرة لجناح العافية ستبعثرهُ أبعدَ من مراقد شقيقاته، في اتجاه الساحة الدائرية حيث تنقذفُ الريحُ ، أبداً ، كأنما خيالُها مرصودٌ بالأرقام الصُّلبة لخيال الحجر.

سبع وثلاثون شجرة. ثماني عشرة تتقابل صفَّيْن، وواحدة مفردة تسدُّ الممرَّ في نهايته قرب الخان. « شجر المُعْجَم » ـ هذا لقبُها الذي استأنس به عقلُ المقيمين على مشارف أرض الآثار المطحونةُ ، نقلوه عن لسان « أرْدَهان » حارثِ النَّقْشِ ، ابن قاضي الطهاة راونْدْلُوْرْ ، دهقان الدساكر الثماني والأربعين في سنجق فِيْشْ خابور. هي شجراتُه في بستانه الحجريِّ المترامي، من الساحة المرصوفة التي تقوم عليها دارتُهُ الفارهة، الدائرية، حتى آخر عمود مُنْقَصف من إرث « ميدو »، على التلال المتوسِّدة عانةَ السماء البليلة غرباً. جَمَع « أَرْدَهان » الشجرَ والحجَر إلى خلافته في مِلْكِ أبيه المنصرف، في عزلة قلبه

(*) الفصل الأول من رواية بعنوان « الأختام والسَّديم ».

ويقينه، إلى تدوين « فاكهةِ الرَّقْمِ » ـ الأَصواتِ ومراتِبِ ها، بعد اعتزاله القضاءَ الذي أمضى نصف قرنٍ في فرعٍ من الأَ حكام لم يسبقه إليه أحد، ألا وهو فضُّ المنازعة بين الطُّهاة في إقليم شَهْرَزُوْرْ.

« شجر المعجم » . كذا كنَّى « أردهان » الفصيلَ النَّباتَ المتسامقَ في حوزةِ فراغه. لم يشرح، إلاّ باقتضابٍ لا يُغْ ني، نازعَ خياله إلى تأكيد الكناية : « انظروا المعجمَ : تكثرُ الكلماتُ فيه فتختبل. وشجري هذا كَثُرَ عليه ذهولُ الحِفْظ ». الشجر ساهرٌ أبداً. مشرفٌ أبداً على ودائع المسكونات. « امتحانٌ نباتٌ مبوَّبٌ على حروف الدَّهْ ر » يقول الكهل، الذي انفتحت بوَّاباتُ قلبه عن مَهَبٍّ من النقوش على كل شيء : جدران دارته، وغُ رفها، وأرضها، وساحتها، وأدراجها، والخان الُ لحق بها، ومعادن آلاتها من الأسرجة والفوانيس حتى الأباريق وصِ حاف الطعام. ويكاد أن يمسك الغيوم، في مرحٍ ، ليعيدها إلى السماء مزَّينةً بصروفِ الأشكال وقضاءِ الخطوط. فهو المنحدر أصلاً من سلف تملَّكوا الإيالات في نواحي هكَّارْ بمراسيم من الخط الأيغوري، مدموغةٍ بأختام السلاطين الجنكيزية، عَمَدَ ، في سخريةٍ استوفاها من أبيه، إلى « دباغةٍ بلا ألم في جِلْد آدميٍّ حيٍّ » : « العلوم والنّحو لا يكفيان لإبقاء الكرديِّ كردياً. جِلْدٌ تحوجه دباغةٌ ، وكَشْطٌ بشفرة الرَّسم والخطِّ »، لكنه بقي على ريبته المأثورة عن سلالة نَسْلِ الجنِّ من الشعر. الكردُ لا يحبون صنف الكلام هذا، الذي يقيِّدُ الهيبة في الموقف ويُطلق الخفَّةَ بحساب المبالغة والاعتراف اللذين لا يليقان بالأقوياء. الجنُّ ، الذين أورثوا شِعابَ الجودي، مذ تزوجوا الآدميات هناك، عِرْقاً ليس على مشارب النُّطَفِ في أصلاب الجنِّ ، طووا صَفْحاً ـ بإلحاحٍ عذبٍ من نسائهم ـ عن تلقين الأبناء مرادفاتِ المعنى في طنينه، عبر صوتٍ ذي معارجَ في أوزانٍ لا تليق بالصوت كهبة حُرَّةٍ من النُّطق القُدسيِّ. ليبقَ إرثُ الشعر في موطن الجنِّ الأول، على تخوم اليابسة العريقة، أما الصَّقْع الجديد الذي استوطنتْهُ قبائلُه المرئية فما من حاجة بالقرائح إلى نَظْم الفكر فيه مبثوثاً في رحاب الصِّ ور، أو مغشياً عليه من أثقال البيان. هكذا وطَّد الدمُ المختلطُ من ماءٍ حيٍّ ، وقرمزٍ مسكون، وفراغٍ متاهٍ ، نشأةَ الطَّبْع في الكُ رد على حيلة الظاهر وحده، بلا توريةٍ ، فيتصبَّب الواحد منهم من مسامة الطيشَ ، والتهوُّرَ ، ومنازعةَ الأرض على كونها أرضاً والسماءِ على كونها سماءً . لكن « أردهان »، المُنتدَبَ من جموح الطبائع في زلال خصيتيه على تسعة فرُوْجٍ مكتنزةٍ بلا خصامٍ في عصْمَةِ ذكَرِ ه، التفَّ على حيلة الظاهر من جهةٍ يغشاها العابِ ثون، مزمعاً أن يعيد إلى أجداده من الجنِّ العُ صاة، ممزِّقي قميص الطاعة على كتف سليمانَ النبيِّ العاشق، خمرةَ يقينهم في الكلمات المحسوبة ضلالاً يُرشِد الخيال إلى كماله : « سأحفر الشِّعْرَ على مناقير الطير ومناسِرها ».

هو لا يدري كيف هاجت به الإنعطافةُ من ريبة عقله في الشِّعر إلى تزويق الجسوم الصلبة في معمورة مُلْكه ـ مُلْكِ أبيه المنعزل، قاضي الطهاة ـ بالشِّعر حتى فاضت الخطوطُ عن مساربها في الأبهاء إلى العتبات، وانسرحتْ أبعدَ إلى حجر الساحة فالأدراج فالأقبية، التي ينحدر إليها الممسوسون بجلال الوجود الأرق ليتأملوا صفوفَ الجرار الملآى برماد أمراء جزيرة بوتان. الأب راوْنْد لُوْر خلط الأرمدةَ بالتوابل : لكل رماد ما يعادل طباعَهُ من الطَّعْ م. وتدبير ذلك، عن عِلْمٍ دقيقِ النَّظَرِ كالمتحصِّل للأب راوند لور، هو شرعةُ بقاء الحقيقة متأصِّلةً بجوهرها في بذرة الجماد الجَوهر. الرماد والتوابل جوهران، أما الأرواح فهي أبخرةُ الطهو يتنشَّقُها الغيبُ الجائع ثم ينساها بعد الشبع. الأرواحُ عَرَضٌ

من أعراض الضرورة.

راوند لور اكتفى، في أعوامه الثمانين، بخاصِّية اللَّمس وحدها. الذوق نَفْسُه غدا لَمْساً. إصبعه تنتقل من الطعام إلى فمه، ومن التراب إلى فمه، ومن السطور، التي لا يراها في كتابه المهترئ، إلى فمه. يقرأ بلسانه ـ لسانِ المعتزل في الدهليز ذي النقوش الخضراء، على الصفيح الفضَّـة، تحت الأربعة الأعمدة في بهو البيتِ الفاره. وقد أصغى قليلاً إلى الجَلَبة التي تدحرجت خافتةً صوب مرقد يقينه ففتح فمه. هَمْهَمَ. عاد بعينيه النازحتين من تِيْهِ النور إلى الظلام الكليم يتتبَّع قلوعَ الطهاة في عبورهم الأرخبيلاتِ الأزلية.

سريعاً التمَّ نفرٌ من المرحِّبيْنَ حول الرجال السبعة، الذين سلَّموا أرسانَ دوابهم إلى عناية القائمين بتدبير المباهج الصامتة للحيوان في زرائب الحجر، خلف الخان، حيث أعيد تصويب الغاية من الأعمدة المتحطمة في آثار «ميدو»، فرُفِعَتْ ثانيةً، وكُرِّمتْ بسقوف من جذوع الزَّان عَلاها الطينُ الأحمر المُغْتلم، والمداخنُ ذات القباب المثلَّثات ـ سليلةِ الشَّكل الساهر على حُلمِ الهندسة. وهناك، تحديداً، ضربت شفاعةُ النار والنوم مسكوكَها المعدنَ فانبثق من نَقْشَةِ المسكوك خانٌ هو الأكبر في الأقاليم المدحوَّة كرغيفٍ كونيٍّ من نواحي جبال طوروس حتى زاغروس، وأرارات، مع انفراجٍ في المشهد المسكون على الفراتَيْن وما يليهما شرقاً من أُمم المعمورات والمهجورات.

كانت أيدي الوافدين السبعة تُسلِّم الأرسان إلى الأدلاَّء المبعوثِين طلائعَ للخدمة، وعيونهم على الشجرات الزرقاء، قبل أن يخرج أردهانْ بنفسه إلى الساحة، من شَقّ الباب القوسيِّ الضخم كختمٍ ضخم من الخشب المطعَّم بتسعة أرطال من الفضة جَرَتْ بها الحروفُ أقصوصةً عن لسان المُلاَّ سياهْ، مولانا السيد عبد الله الملقب بالشيخ الأسود، مدوَّنةً بالفارسية على نَسَقٍ من خطِّ الإمام السعيد في علوم الحبر والتدوير سعد الدين شمشاه الباهناني، الذي أُلقي به من قلعة الهناخْ بعد ضربها بالمنجنيق، في تاريخٍ عاثر الحظ. أُوَيْس أوْسِنْجَانْ بكْ الأعور كان إلى يمين أردهان. أمير النوم والنار، الموكل بتدبيرهما نقَّيِيْنِ، في الخان، أعطى إشاراتٍ من عينه اليسرى الوحيدة، المثلومةِ البياض بسيوف من العروق الحمراء المحتقنة، فهرع الخدمُ بالدواب إلى كمائن العلف والسقاية. وكاد يسبق مخدومَهُ أردهان بن راوند لولا أن سحبه مخدومُه من كمِّ عباءته يلجُمه من الإسراف في إعلان طباعه الراضعة من أثداء الهررة الكلدانية. فهو ـ أويس أوسنجان بك ـ مذ تسلَّم مقاليدَ إدارة الخان من سلفه أنْداكيْ تاجْ، الذي مزَّقه سبعة غلمان من القاجار العابرين مع قافلةٍ بالخناجر، يستعرض على كل وافد مراقيَ من الإنشاء المتملِّق في لسانه، حتى لكأنه يستظهر سوراً من علم الأنساب والحمائل المتبوعة بسلاسل من الحمد والمحامد.

تراجع الأعور قليلاً. «أهلاً بكم» قال أردهان فاتحاً ذراعيه. احتضن السبعة واحداً واحداً يقبِّلهم من أعناقهم، فوق ذؤابات العمائم المعقودة باستدارتين هما علامتا المشرق والمغيب. تراجع قليلاً حين انتهى العناق. ساواهم بترحاب يديه وعينيه وقُبَلِهِ قبل أن يعرضوا عليه حدائقَ أسمائهم وثمَراتِها. إنهم، تحديداً، أهل الغاية التي أسرجَ من أجلها الغيومَ ثماني مرات، يقودها رُسُلُه من منابت الريح في «ميدو» إلى فسطاط الله فوق ولايات الصفويين شرقاً، وولايات القاجار شمالاً، كي يذلِّل المطرُ،

بشفاعة ما لا لونَ له، طباعَ المُمانعات وجفافَها: «فَلْيَحضروا، بحقِّ الخواتم»، قال أردهان للرُّسل خائفاً من أن يُحْذَل. وها هم حضروا ـ أولئك الذين عرضوا على برهة قلبه الممتلئة لَبناً أسماءَ حقائقهم المتصلةَ بالأنساب ـ بعد أن قادهم رُسُل أردهان من الولايات فرادى إلى ملتقى القوافل في قلعة بوران، من أرض النكبات ـ الجلود الآدمية التي كتب عليها الشاعر تولون فيغيني مديحَه العذبَ للجمال في صحراء الهون. ولَمَّا اجتمعَ السبعة وسط امتنان الرُّسل للهبوب الموائم من جهات الأقدار، بُسِطَتْ الغيومُ الاستبرقُ لقوائم الدواب والعربات من قلعة بوران حتى نَجْد «ميدو»، وفي البرهات التي أصغى فيها أردهان بخواصِّ الصلاح الأعظم في مَلَكات الإصغاء إلى رنين الأنساب، كانت الغيوم تلك تُطوى لفائفَ كوسائد الأمراء في حاضرة «مُوْشْ»، وتُطْلَقُ خفيفةً فوق أرائك الأبد ذات التطاريز البويهيَّة: «عودي يا بنات الحِيْلة»، تمتم أويس أوسنجان، محدِّقا بعينه الواحدة إلى الغيوم، وانحدرَ بها ـ بعدئذ ـ يُحصي السبعة. أرعدتْ غمامةٌ مسَّها لسانُ كبده: «أين الثامن؟» ساءلَ خيالَ الأرقام ذا النُّظُمِ المهجورة.

«مَيْكَر بَابُوْ ليس بينهم»، قال أردهان. شَمَّم بأنفه الرَّقم السبعةَ ـ رقمَ الميزان ذي المكاييل المتدلية من حزام العَدَم. هو ليس رقماً، في الأرجح، بل نَفَسُ المشيئة بعد فراغها من تسطير الميثاق المُمْتَحِن. سبعة أيامٍ بلاءٌ قرب عقل النشأة. الكلُّ بلا نقصان، من الروح حتى فساء الذئب. سبعة لا تتوازن في كفتين: تلك هي المُعضلة. أردهان وزَّع حسابَ الكينونة على حَدَّيْن هما رباطُ المعقول. طلبَ ثمانيةً فحضرَ سبعةٌ. كيف سيقتسمون زادَ اللون ومَتاعَ الشكل؟ هم أمراء في مهنة التشخيص رَسْماً. تحت أيديهم ممالك من صور الممسوسين بالكَرَم القُدسيِّ استعادوا بها خيالَ اللامعلوم ناطقاً.

وها أردهان، ابن قاضي الطهاة في شهرزور، يستميلهم بهباته فيُحْضِرُهم إلى «ميدو»، كي يُعيْنوه على استيلاد شيخَيْنِ من الممسكيْنَ بتلابيب المُعْضِل استيلادَ البزرة من الممكنات؛ شيخين لاسميهما جسارةُ المحسوسِ بيَدِ اليقين، لكن ينبغي أن يتخيَّر لهما الرسمُ، بالحفظ الذي لا يقبل التسوية إلاَّ عَدْلاً تتعافى به مداركُ الظاهر قَبْل الباطن، بهاءَ الإقامة في حجابٍ مرئيٍّ، حاضريْنِ غائبيْنِ، مشرفيْنِ من البرزخ على البصر في استحالة بصر الناظر إليهما قلْباً، ووجداناً، وطَعْماً من مذاق المشمومِ الخالد: ريحِ المجهول. لقد تطاول، في ماضٍ من علومِ اللون، مبشِّرون بمآدب الكشوف المرقونة، على تخطيط المشور من ظلِّ شخصهما، فأقاموا الصناعة مقامَ «نداء الهيئة»، وهو عِلمٌ يتحصَّل بالمِران على مخاطبة اللون. وصلت الرسومُ إلى أسواق تبريز، وديرسيم، ونصيبين، وملاطية، من غير روح. والذين علَّقوها إلى جدران منازلهم بخيطان من قنَّب، أو ألياف من قصب الأهوار السوداء، عادوا فأنزلوها، بعدما سَرَى أن إماماً في أرض بوتان سمع استغاثة اللون في رسم الشيخين النقشبندي، والكيلاني. «بَرَكةُ اللون من بركتهما»، قال أردهان. «سنعيد إلى اللون كرامة حضوره الأزلي تحت عرش الله»، وهو يرمي بلسان الفقيه البسيط فيه إلى أن الظلامَ ـ خرزةَ السواد الأولى في الموجودات الجوهرية القائمة بذاتها ـ موصوفٌ أوحدُ في إشارة الإلهيِّ إلى مكين إقامته، بحسب الشروح الكبرى والصغرى في علوم «الأَيْنيَّات» الشديدة المقاييس: كان العرش، منذ ما لا يتَّصف ببدءٍ، في عماءٍ كليٍّ ـ سوادٍ مُعَتَّقٍ في قارورة القِدَم. ومن السواد؛ من خَلِّه الحامض الأنيق، ارتسمت ـ من ثمَّ ـ عَلَقَةُ البياض حتى غدت

فراشةً تسرح فوق غمر الوجود المنبثق من أجاصة الطين.

يقيناً ، لا يحاول أردهان أن يمضي إلى تأويلٍ أبعد من اختصاص قلبه بالمحظورات الشفيفة، وبإرث العقل البسيط بلا خزائن تُذْهِل وتَصْرَعُ ، حين يصف القائمَ على إمارة خانه وملحقه الإسطبل الشاسع أويس أوسنجان بقرابة الأصل مع الكرامات وحقائقها : «أن تكونَ مجذوباً ـ وأنت لستَ مجذوباً يا أويس، أو تكون لك عين واحدة ـ ولك عينٌ واحدة، فذلك تدبيرٌ لا يَخْفى معناه عليك. لقد أُعْطِيْتَ حظّاً في الأقدَمَين : الظلام والنور. الحقيقة فيك، يا أويس، أصلُها في عينك المُطفأة، الحُرَّة. بها، وحدها، ترى من أنت يا أويس. النُّورُ غِيْرَةٌ. منذُ بدءِ النُّورُ بدأتِ الغيرةُ. المرئيُّ ـ لا سواه ـ يغار من المرئيِّ». هكذا تتأوَّلُ العلومُ شرارات الجمر في خزائنها : خُمِرَتْ طينةُ آدم أربعين صباحاً حتى نضَّجَ عجينُها الخالقُ صورةَ الحركة. الصباحاتُ ـ النُّورُ هي التي وهبت الرُّشيمَ الذاهلَ ، المستورَ في ذهوله، خصِّيصةَ النّقْلة إلى الوجود العاقل: وُلِدَ الشكلُ؛ وُلِدتِ الدائرةُ الناطقةُ بلسان الجَدَل؛ وُلِد الحِلْفُ الذهبيُّ للمعجزة في قفير الجسد الآدميِّ ، حيثُ يدخل نحلُ الغيب غاضباً ويخرج غاضباً ، مسعوراً من قيظ الفكرة ذاتها : أن يكون الوجودُ ميثاقَ الضجر من وجوده وجوداً.

منذ بزَغَ النُّورُ ، المُنضجُ للخمائر في قِدْره، بزغَ الإمتحان. أُضيئت الخلائقُ المستولَدَةُ من كمال غيبوبتها في البرهة التي قدَّرَتِ المشيئةُ لها أن تكون امتحاناً. ما ينتظرُ الكائنَ ، بعد عثور النور على تاريخٍ للنور، هو الامتحان، أي خضوع الماهية امتناناً لِمَا لمْ تستطع تلافيه، وأن تنطحنَ بحثاً عمَّا يُرضي أسبابَ مثولها ماهيةً بعدَ أنْ لم تكنْ.

ما قبل النور ليس ما بعد النور. في الظلام كان كلُّ شيءٍ ، ـ كلُّ عقلٍ ، وفراغٍ ، وإرثٍ مكنونٍ ، اختزاناً للأزل في تقدير الله للظلام أن يكون ذاتاً تتحدَّد بوجوده، هو، في مغاليق ثقَله.

الظلامُ هويةٌ تقومُ بها ضرورتُها؛ خلاصٌ لا يخصُّ أحداً؛ رسولُ الإلهيِّ إلى نَفْسه في المُطْلَق المُعذَّب شوقاً إلى اللاَّ مقدور، اللامكنون، اللامتَّصف، اللامُثْبَت، اللاوساطة، اللامنتقل، اللاموجبَ له أو عليه، اللا إحاطةَ ، اللا خاصيَّة، اللامعمور واللامهجور. لكن، حين قُدِّر للنور أن يُنشيءَ خميرةَ الامتحان الأولى، انجرفت مصكوكاتُ الغيبوبة الكبرى إلى التعلُّق بالأسماء فصارت علوماً ناقصةً في تقدير الآدميِّ القادم من مصنع النور محمولاً على خفَّة آلاته، التي ينكبُّ بها ترميماً على قَدَره كي يوسِّع لنَفْسه باباً إلى القبر.

مع النُّوْر جاءت الأسماء؛ جاء الصوغُ الأكثر قسوةً في تنظيم الإشراقات على هَدْي النقصان وتبعية التعيين. لم يعد لشيءٍ منجى من الفتنة. «عينك الفارغة ـ عينُ القِدَم شاهدةٌ على عينك الملآى ـ عين التبذير، يا أويس، فاحفظْ لنفسك هذه الحظوة»، يقول أردهان. غير أن عيني أويس تخاصمتا وهما تحصيان الرجال الواقفين على ذراع من أنفاس ابن قاضي شهرزور : سبعة. يا للرقم المتدلِّي كخصية من حجاب الأرقام. «أين الثامن؟».

إنها برهته الأولى التي يتعرَّف فيها أردهان إلى ضيوفه ـ أمراءِ التشخيص بأقلام اللون وترياقاته : الظلامُ الأسودُ ، وجراؤه البقيةُ من أحمرَ وأصفرَ وأخضرَ ومهتوكٍ ومستورٍ. لا بأس. هم ندماء المُسْكِرة في الخصائص المُسْكِرة في اللاتعيين، يُشرقون على العماء من مجاهل الشكل، ويستولدون الخفيَّ

خدعةً في مضائق الخطوط. فتح أردهان ذراعيه كأنما يطوِّ قهم بالهواء الذي هو امتداد جوارحه اللامنظورة. « تفضلوا »، وأشار إلى باب الدارة، ثم تلمَّ س بأنامل يده اليسرى كتفه اليمنى، حيث تتدلَّى خرزتان صفراوان في خيط ذهبي.

تقدَّم السبعةُ المنبثقون نقوشاً آدميةً في لوح الفراغ الظاهر. أُ زيحت الستائر البيض، المخرَّ مة، المنسوجة بأنوال قرى سَهرابْ ، عن النوافذ الدائرية الثلاث، بأنامل أنثوية، كي تستجلي العيونُ خصائص الخطوات المُحْكمة لذكورٍ موصوفين باقتدارهم على ترتيب الوجود الصامت مشتعلاً من فتيل العدم الكتيم.

فتح فرهاد الطاهي، ابن الفقيه مَرْدان زَنْكَنَهْ ، البابَ الضخم، ذا الصرير المشموم كفراء شجر الزَّان.

دخل السبعة يتبعون أويس. تبعهم أردهان، فالطاهي، فثمانية فضوليين من نزلاء الخان، فالفتيات الأربع اللواتي دَرَسْ ن، بتؤدة، نداءَ الكيفية في الايوان الأكبر، خلف الفُسقيات الستِّ المتقابلة بمياه نوافيرها، وهنَّ ـ بحركاتٍ من أيديهن المختومة بثمارِ الحناء، تلكَ التحفِ النازعة إلى التماثل مع حروف اليقين مصادفةً ـ يتأكدن من ثبات قبعاتهن المصنوعة من رقائق المصكوكات النقدية في ولاية أربيل. قبعاتٌ كالخوذ الرقيقة؛ فلوسٌ فضةٌ معقودة بسلاسل مجدولةٍ كسيقان خنفساءِ الكَرَفْ س، فوق مناديل الرأس. ثلاث منهن كذلك، والرابعة بعمامة تتلاطم في دائرتها، من الجبين حتى القذال، ذوائب من وَدَع بحيرة وانْ.

مرَّ الجمْ ع من حديقة الدار المسقوفة بقبة واسعة الأرجاء، عالية على نسق المساجد في أرضروم، جُعلت لها كوىً بزجاج أزرق وأصفر، تُرى على حوافها أعشاش سنونو ـ ذلك الطير الذي تُبْقى له منافذ إلى الفسطاط الحجريِّ المُغْ لق، كي تتكرَّم بعلوم نسله المزقرقِ حيواتُ السَّكينة الكبرى. طيرٌ فكرةٌ. سواد في بياض. حجابٌ سوادٌ من الظاهر وبياضٌ من الباطن. مثلث صغير بُنيٌّ في الرقبة، أسفل المنقار، هو أثرُ نبات الحنَّاء تعرَّف الرعاةُ به إلى كشفٍ من الخضاب، مذ رأوا الطائرَ يمسح برقبته على الغصون، فزيَّنوا أوداجَ الخراف، وإلْ ياتها، ثم اتخذت النساءُ بعصارة ذلك النَّبْ ت، ونقيعِ اليابس من ورقه، حُجُباً من رسوم الغيب على أيديهن، وأقدامهن، وحلمات أثدائهن، وفوق العانات الحليقة، لتبقى حقيقةُ الجسد مستيقظة في كمالها الساحر، ألقاً بعد ألقٍ ، كخلود الرَّجفة في العناق المُسْتَنْزِف ماءَ الذَّكر بشِفرة الأنثى. طيرٌ فكرةٌ ، يرقد بصدره على حوافِ المياه حين يشرب، ملتقطاً صورةَ ذاته الشفيفة رشفةً رشفةً كي تتوزَّ ع في جوارحه بنداء الكثافة. هو يلد صورتَهُ وتلده صورتُـهُ. ذرقُهُ يُصفَّى في الخلِّ الأبيض فتُؤْخَذُ غثاثتهُ الطافية على السطح فيكون لها مقامُ حبرٍ فضيٍّ . ربما الأمر؛ بحسب توصيف النظر إلى نشأة الأَحْمَ ـاض، أن السنونو شَرِهٌ في التقاط يرقات الحلزون من مراقد الماء وحوافِ البِرَ ك، فإذا انحلَّت أصدافُ اليرقات إلى عصارة في المعدة خرج السلحُ من المعي صمغاً زئبقاً ، أو شاكلَ الزئبقَ بلا سُمِّيَّةٍ. وقد اتقنت الفتياتُ الأربع، الموكلات بمخاطبة الحصى في حديقة زانا خاتون ـ امرأةِ أردهان الأولى، نقيبة نسائه الأُ خريات الثماني ـ استطلاعَ مساقط الذَّرْق في عبور السنونو فوق الفُسقيات الستِّ إلى الأعشاش الخشنة، فيأخذن الحصى الملطّخ إلى قوارير الخلِّ ، ثم يُرجعْنَه إلى مواضعه: كل حصاة عروة في القميص الأرضيِّ الممتد الحواشي في الفناء الشاسع تحت القبة الشاسعة. حصىً حملته بغال مُوْشْ ، ذات الجباة الضيقة، من كهوف الصحراء الباردة شمال

تبريز، إلى « ميدو » .

الينابيع، التي تعبت من فكِّ لغز الظاهر، عادت غائرةً في اتجاه الباطن المُداهِن ـ خزانةِ أرقام السِّحر الرثة ومتاعه المهترئ، تاركةً خلفها، في عماقة الزمن ما بعد القلق المصغي إلى الماهيات المحيِّرة، سبائكَها الكُرَيَّة ، بألوان كأعين الضفادع الزرقاء العلجومية، والسمندر الطويل الذّنب، ذي السموم التي تفجِّر أقواس قزح في ممرات الخيال المنحدر إلى الموت، إذا سُقيَ به المغلوبون والمخدوعون. حصىً هو لعبة الجماد في إنقلاب اللدائن على نفسها، وانتقال المعادن الناطقة من برزخ الفلز المعتزل إلى الإجتماع المؤنس، في صورة الكتلة الملتحمة بانجذاب الذَّراتِ بعضِها إلى كمائن بعضٍ. رخويات الهيئة الهيولى، والخلايا الآحيَّة في فتنة وجودها البسيط، تتصلَّب، بانسلاخها من دِيْنِ الماهية المُطْمئنَّة إلى ديْنِ الماهية المجرِّبة بلا احتراز، فتغدو حالاً من بشرى الحجر بميلاد السكون العاقل. لا خصائص أنقى من خصائص العَدَم المُسْتَحْدَث في كينونة الحصاة؛ لا جمال أكثر ثرثرةً من الذي لحصى حديقة زانا خاتون، تحت أظلاف غزلانها التسعة، التي استعرضت ـ في هدوءٍ مفصَّلٍ على مقاس النوافير التي تقرأ للفسقيات ضياءَ القبة العُلْوية ـ عبورَ الرجال المرسومَ على لوح الجَبْر. خُصِيَ غزالٌ فمات لوعةً على ذكورته المهتوكة. بقي تسعة تحت غمامة قلب زانا. وصلت يدا الطاهي فرهاد إلى الغزال في حمّى خياله المُنَقِّب عن سطر الله الناقص في مصير أردهان: منيَّةُ لا يُنْجب. لا خيالَ لمنيِّهِ كي يستحدث، بآلة الصور في ظلام خصيتيه، شكلاً زلالاً يَثْبتُ على لوح الأرحام. عنده تسع نساء، اختارهنَّ بجلود عليها نقشُ الولاية الأزلية للملائكة المسرعة بالصلصال المشوي إلى غمامة الصفات، حيث اتخذ اسمُ آدم من حروفها الشفيفة توريات القلق. الذَّرُوْرُ الدقيق، الذي تناثر من الصلصال، دحرجَهُ النفخُ الإلهيُّ إلى الظلِّ الأول ـ ظلِّ الأجنحة المرفرفة في الغيهب، هناك، تحت لسان اللامنطوق الذي سيغدو تأويلاً مؤرِّقاً في بزوغ حواء من عضلة المكيدة عَصَباً من لون. شروقٌ مُعْشٍ تخلَّل عظامَ الذَّكر بأمشاطه ـ أمشاط التبرُّج فتباعدت ضلعاً ضلعاً لتخرج صورةُ المصكوك الثاني تأكيداً لصورة المصكوك الأول مختوماً بختم اللحم الحيِّ. تقلَّبت الأنثى الوليدةُ على الظل فعلق بجلدها ذَرُوْرُ الصلصال، ذلك التدوين الأول للنقش الذي سيُسمَّى نَمَشاً. وقد امتحن أردهان بَرَكةَ النقش الموصوف بجلال الحقيقة، فاختار نساءه ببشراتٍ يترقرق تحتها مسيلُ الحليب أو ينبسط الشفقُ أحمرَ برتقالياً ، بيضاواتٍ حُميراواتٍ ، على خدودهن وأنوفهن ثرياتُ نمشٍ تُقاسُ ـ خيالاً ـ بالتطابق بين فَلَك الأبراج وفلك النجوم. أما الدروب الخفية لمجرات النمش، التي تفتح لنفسها في الأثير الدافئ للكثافة مساكبَ من أكتاف النساء حتى ترائبهنَّ ، ومن السُّرر حتى قباب الفُرُوج، فتلك أقاليمُ تستطلعها أنفاسُ أردهان إذ تنتحل علومَ الرعاة، غادياً رائحاً بالقطعان القُبَل في سهول الجسد الريح. لقد وطد الرجلُ ـ حرَّاثُ النقش ـ للحقيقة خصائصَ البناء كي تلد له ذريَّةً من الرحم الموصوف، باختبار النمش، يقيناً لا ينفذ إليه عبثُ المصادفة، فإذا بالعبث يلتهم أملَ الصور في أن ترتدي أمام مرآة المنيِّ ثوبَ الشكل. امرأةً بعد أخرى هيّج السديمُ العَدَمَ في خصيتيه. فحولتُه المخضبةُ بالحناء كراحتي يديه فكّت رباطَ رئتيه في كل استنزافٍ لقَدَرِ الماءِ فيه، حتى لتكاد نساؤه أن يوقِنَّ أن يدين خفيتين تتفقَّدان في أحشائهن، من مضائق المهبل إلى المَبيْض، علاماتِ المشيئة التي يهتدي بها تدوينُ الصور على لوح

الخَلْق ، لكنهما لا تعثران إلا على الهباء.

سطرُ الله الناقصُ ، إذاً ، أَلْهم الطاهي فرهاد أن يستجير بالممكنات المستورة في خيال التدبير. نزل السردابَ إلى ملجأ قاضي الطهاة راوند لور، وهو يحمل صور الأختام التي سيُضمِّنها كتابَه الفريد الطريف: «مأدبة الإعدام». الأبُ الدهقان، مزلزلُ الأحكام في أمورٍ لم يسبقه إليها قاضٍ قط، كان منصرفاً إلى قراءة الفصول الناقصة في المؤلَّف الذي لن ينجزه: «فاكهة الرَّقم». راوند لور لم يكن طاهياً ليحفظ لنفسه شَرْعَ الأحكام عن مرانٍ في خصائص انتقال العناصر إلى أطعمة، وانتفاع الحِيَل بالحِيَل في توليد الأجناس من روائح الطهو ونكهاته، لكنه تتبَّع الحواشي المُهْمَلة في تصانيف السِّيَر الثماني ـ سِيَرِ القصَّابين المعتمدين في قلاع بلاد زوزان، وبخاصَّةٍ سيرة بوري الهدهد، عالِمِ اللّحم في قلعة جُرْدْقيْل، التي فيها كرسيُّ ملك الكرد آتيل.

اللحمُ قِيَافةٌ. علومُ الأعصاب، والأوردة، والألياف، والشحوم، والغضاريف، والأغشية، والعظم، والنخاع، والنِّقْيِ ، ستورٌ تُزاح عن مراتب التفضيل. لا قطعة من جوارح الحيوان المذبوح تشبه الأخرى في مَسْلَكِ الطهو. أسرارٌ بَلْغَمٌ ، وَعَلَقٌ ، وماءٌ ، ودم، وأبخرة تجسَّدتْ كثافاتٍ في نشأة الجَسد الحيوانيِّ. أسرارٌ تلزمُها آلةُ النظر في إقامة العقل على مشارف المُلْغِز ـ آلةُ القيافة، ذلك الهمُّ الذي يستجلي بالنُّقصان الإنسانيِّ شواهدَ المُحْتَجِب. قصَّابُ قلعة جُرْدْقيل، بوري الهدهد، صنَّف مثاقيلَ المستورات على مقاس الطعومَ في أجزاء اللحم، فاستهدتْ بوصفه الطُّهاةُ القيافون. وقد آلت قراءةُ سيرته بالقاضي راوند لور إلى استخلاص الطباع على هَدْي مقادير التوابل، كعنايةٍ عِرْفانية، واقتدارها على تنظيم السلوك بعد الشَّبَع. ولَّما فرغ من ملاحظات في هوامش السيرة نقلَها إلى مَتْنٍ مخطوطٍ اعتمده الوقف الإسلامي في شهرزور، بعد تشاحنٍ قوي، وتقاذفٍ بالتهديد بين الطهاة انتقل منهم إلى أسياد مطابخهم من موبذانات الإقليم وأمراء الإيالات. كلٌّ مقتدرٍ انتصر لطاهيه، وتوابله، وأعشابه، وأسرار أخلاطه في الانتقال بالطهو من أسر الوعاء إلى كرامة الذوق المستنير بخصائص الفردوس الموصوف نكهةً بعد الأبدية. رُفِعَت المظالمُ ، قبل استفحالها شرّاً يأخذ بيد الخير، إلى القضاء الذي اعتلى منصَّته راوند في جبَّته المقصَّبة الأكمام، فأخذ بيد الطهاة والموبذانات، معاً ، إلى أحكامٍ هي تفصيلٌ كالقيافة في شؤون النِّسبة، والمقادير، والمثاقيل، تكون قاطعةً عبر امتحانٍ للطهاة يحملون ـ لاجتيازه ـ توابلَهم، وقواريرَ خلِّهم، وحُققَ الزجاج المُستخدَمة لتقدير الكمِّ ، إلى المحكمة، فيجري ردُّ المُسْتَحْدَث من الطَّعْم إلى مُسْتَحدثه، وابتكار الخَلْطِ إلى مبتكِره، وتغريم منتحلي التوصيفات، ونشْر الي أسرار الأوعية، بالتعريض بهم في ورقة ممهورة بختم الولاية الفقهية يتمُّ لَصْقُها على باب الخان. وتلك غاية ما تستطيع المحكمة فعله لتعذُّر التغريم والمعاقبة على أي وجه آخر ما دام الطهاة في عهدة أمرائهم. وكانت سرقة النكهات المرصودة، والطعوم المُسْتَغْلِقة بحرص المبتكِرين، قد شاعت في تلك الأنحاء، بعدما تبادل الطهاةُ دسَّ النساء العاملات في المعاجن، الخبَّازات منهنَّ وموقدات النار والغاسلات، في مطابخ الآخرين يجعلون منهن عيوناً على أيدي المَهَرةِ وقوارير مُطَيِّباتهم.

راوند لور عزَّز علومَ فرهاد زنكنَهْ بالشفاعات التي تبيحُها الأسرارُ المُحْكَمة في مذاهب الطعامِ ، منذ التحق فرهاد بمطبخهم شاباً في عمر ابنه أردهان. صقل بمبرد الجسارة خناجرَ النكهات ونصالَ

التوابل، بتحريض الشاب الطاهي على التمرد في حلقة الموازين من حوله، حيث المعارف تتشاحن بين القوارير، والأوعية، وقفف المجفَّفات أعشاباً وفاكهةً وقشورَ أفاويةٍ. ولَّما نضج الشحمُ الرقيق على عضلة العقل الحافظ، في خزانة قلب الطاهي الشاب، المؤتمن مع أمه سَهْبَـ ـا، وأختيه قبل زواجهما، على مملكة الدخان العرَّ اف، أباح له راوند أن يروِّض ما يشاء من الكيفيات المهجورة أولاً ، بإعادتها إلى سُنَّة المآدب، والتلاعب بالمكاييل ثانياً ، بحسب ذوقه المتأمِّل في بروج النكهات وأفلاكها المعدودة على سُلَّم الأرقام الغبارية: « الطعامُ فِقْهُ الحقائق ».

حين أشرف راوند لور، دهقان الدساكر الثماني والأربعين في إقليم فيشْ خابور، على ثمانيناته، حجب نظرَهُ الغمامُ المتسرب من سهل الجمجمة إلى الوقبيْنِ ـ غمامُ الخليَّة وهي تنحدر من شفق المعلوم الأرضيِّ إلى المجهول الأرضيِّ ، بدفعٍ من حيلة الوقت المعهودة. صار يتقرّى حدودَ الممكن بلسانه وأصابعه، في السرداب الذي اتخذه أسطرلاباً على أطلس العماء الكبير، تحت الطبقة التي تنتصب على رخامها الناطق بحكمة جبل كاسْ الأربعةُ الأعمدةُ في البهو المفضي إلى حديقة زانا خاتون. آنئذ، في الوحدة الرملية المحروثة بخطوات شبح زوجته الميتة ريشمَلَكْ ، وبأنامل حنينه الحديدية إلى أبنائه الأربعة الآخرين، أوقد سراجاً من شحم الطاووس فوق غطاء الجرة التي يحفظ فيها رمادَ الملا سياه ـ الشيخ الأسود، وجرَّد خطوطاً عشواء، وأرقاماً ، وكلمات، بالمصادفة التي تقود يقينَ يده على الرزمة الضخمة من ورق الأرزِّ ، بعدما ثبَّتَ على رقعة من جلد السلَّور الصحراوي عنواناً بحبر القرمز: « فاكهة الرَّقْـ ـم »، متبوعاً بسطرٍ أسفلَ: « أسباب الصوت واتصالها بأسبابها الماهيات الأخرى للخيال الناطق »، بلغة كُرْد زوزانْ ، أعانه على استقامة حروفه على الطرْس فرهاد زنكنهْ نفسُـ ـه، الذي تسرَّب إلى عضلة الخلود فيه صمغُ الثمرةِ الزجاجية ـ ثمرةِ الكمال غير الناضجة بَعْدُ على غصن السّـ ـدرة، فاستثار الدَّهقانَ المُنكبَّ على العماء المولود من شمعِ بصره المحترق في أمر مكيدته الإنسانية : « ماذا تقول، أيها الشريف القاضي، في أن أجمع مُصَنَّفاً في الطعام المسموم ـ ملوكٌ أعدُّوا الموتَ لضيوفهم على الموائد ؟ » ، فاستعان القاضي ببصر المصكوكات العمياء، المضروبة بالختم الآجُرِّيِّ على لوح المعلوم المستور:

ـ كيف استقصيت المداخلَ إلى الملوك، يا فرهاد ؟

ـ بخطوات الموتى في المآدب .

ـ حَسْبُك هذا . استَعِنْ بخيال المواقد .

ـ بل أستعين بخيال الدخان .

في الهزيع الثاني من كل ليل، بعد أن تتجرَّد الظلالُ من طبائع النُّـ ـور الداهية، وتتنفَّس مُمتنَّةً لأزَلِها العريق، يجلس الطاهي الكهل إلى جوار القاضي الشيخ، أمام المنصة الحجرية الواطئة، المطوَّقة بحزام من الأجراس الفضة الصغيرة، منكبين، معاً ، على الورق الخشن، بصريرٍ واحد من قصبتَيْ ريشتيهما ـ ريشتَيْ جناح الألباتروس الأسود، اللتين شهدتا تدوين انتقال سبع وثلاثين ألف خزانة من الزمرد، في قرنين، من فاتحٍ إلى فاتحٍ، في خطٍّ من الريح يصل بحار الإله أوْدنْ الأشقر بكهوف كريت، حيث استقرَّتا على منصة المِيْرْمِيْرانْ ، المنتدب من سُلْطة الختم الذهبي في شمس الترك على الجزيرة المنزلقة

عن سكة البحر في اتجاه غياهب الشرق الحرِّيْ ـف . الأمير بدرخان، أمير جزيرة بوتان المنفيُّ تسلَّم الريشتين من الآمر على الجزيرة، الميرميران الحالمِ بنقل الجزائر اليونانية على ظهور الثيران إلى الجبال، والصعود بها، بوساطة حبال من تكك سراويل الباشَ وات البدناء، إلى سرير النجم العثماني ـ نجم القِ شدة . أمير جزيرة بوتان، نفسه، كان يغرف من حليب الحلم الجبلي في أرض الكرد المنتدبين على إماراتهم بختم مثقوب، ينظر منه الشاه طهماسِبْ إلى الغرب مرة، والسلطان سليمان خانْ إلى الشرق مرة أخرى . وفي الآناء التي يتبادل فيها الشاهات والسلاطين النظر إلى معجم الممالك المنكوبة في البرزخ بين الحقيقتين، تركض جياد سعاة البريد من جهة إلى أخرى، بحقائب من جلود النُّوق فيها رؤوس الخارجين من الكرد على أختام الأمصار الكبيرة : « رأس مَنْ معك، اليوم ؟ » ، يتنادى الفضوليون والسعاةَ : « رأس الجوهريِّ . رأس نقاب الفضة . رأس البرق . رأس الحجَّام . رأس البزرة » . رؤوس بلا أسماء . ألقاب من طحين أصفر . وقد ترأفت العناية الجبريَّ ـة برأس الأمير بدرخان فبقي بين كتفيه، كي يشهد عشر سنين من النفي في جزيرة الثور الإلهيِّ ذي القرنين الحجريين، مع نسائه الأربعين . ولما اشتعلت شرارة النهب الكبرى بين الطورانيين ـ أبناء زَبَد مرمرةَ والبوسفور وبين الروميين اليونان، أبناء الآلهة العجولة في سراديب أحلامهم البشرية، فتح المنفيُّ السجينُ بابَ داره، التي خصَّه بها أقوياءُ الآستانة احتراماً لأرومته الأميرية، للاجئين اليونان، واستحدث حكمةً غدت أحكاماً تحت قلم الميرميران، الذي أهداه الريشتين يوم أُفرجَ عنه : لقد وطَّد الكرديُّ العبوس لسجَّانه ركنَ الرياسة في مذهب المنازعات العمياء بجسارة العدل ورهبته .

من بدليس ـ أرض الدنيا الثانية في عرف الأمراء الكرد المنكوبين سلالةً عن سلالة، حملت ريحُ البحار المحجوبة تحت رمال الإخشيديين ريشتَيْ جناح الألباتروس إلى قضاة شهرزور، فأحكم راوند لور يَدَيْ علومه المؤجَّلةِ في كهانة الحبر القادر عليهما . غسلهما بماءٍ فيه رماد الوزغِ ، وحفظهما في جعبة صغيرة من صَفَن الجاموس معلَّقة إلى عمود في البهو الذي يعلو السرداب الحافظَ رمادَ الملا سياه . « رائحة هاتين الريشتين تدغدغ عِرْ ق الشهوة في باطن فخذي اليسرى » ، كان أردهان يتَعلَّ ـل بمنطقِ الشبهة الذكورية فيه إذ يقول جملته الدائخة، ويقسم أنه يسمع لهاث أمير بوطان نافخاً في كِللِ أَسِرَّة نسائه المنتفخة أشرعةً في أرخبيلات النار العذبة . أربعون امرأة، أكثر من نصفَهنَّ يزيدياتٌ ـ فروجٌ موهوبة من عناية الظاهر الجليل للباطن الجليل . لَحْمٌ رائقٌ كفكرة تروِّض نَفْسها على اللامتعين في القياس؛ لَحْمٌ مرئيٌّ ، مدوَّ ن بحساب الخصائص الصغيرة في الكيمياء، لكنهُ مُسْتَغْلِ ق، مُلْغِ ز، مفاجئ؛ هُذَاءٌ ـ لحمٌ هُذاء يسوط به العقل تَرَفهُ الوحشيَّ في استعراض الله للعقل . اللحمُ الفَرْجَ . الخاصية المستعصية إلاَّ على الوصف الأخرس . أربعون امرأة . أربعون تورية تحت سقف البيان، واليزيدياتُ ، اللواتي استأنس الأمير بدرخان منهنَّ بمجرات من ريش الطاووس ـ الطائرِ المَلَ لك، الذي بقفزتين يعبر الفردوسَ الأزليَّ متعقِّباً الأبدَ الهاربَ المتَنكِّ ر في هيئة الثور كيوثاء ذي الأربعة آلاف عين، مرشد السحاب؛ اليزيدياتُ أولاء نقشن على وسائد الأمير مغانمَ ملائكة الليل ـ العصاةِ النورانيين في اقتدارهم على تبديل الكلمات السبحانية بالأرق المطهو جيداً على جمر الصيرورات : النجوم المُذنَّ بات، وأوراق الجرجير ذات العروق القرمز، والأسماك بعيون آدمية، والبيارق المتماوجة في ريح العَدَم الأول؛

تلك نقوشُ الفكر وهو يمتحن البقاءَ بحساءِ الكمأِ الذي لم يُغْسَل من رمل الفردوس المذعور.

قيل لأردهان إن الأمير ذاك، العارف بعوارض السُّ موم وأخلاطها، كان يسأل واحدة من نسائه، كلَّ الصباح، عن حلم حلمَتْهُ ليتأوَّل مثاقيلَ يومه، فاتخذ أردهان الأمرَ لنفسه عرْفاً ، مع زوجاته القِزلْباشيات الثلاث دون سائر الأخريات. أحلامهنَّ عوارضُ من مصكوكات النقود المضروبة في منازل التركمان، على الحدود مع أقاليم الصفويين. نقود لا تشتري شيئاً في أرض شاهات الشمس الشرقية ولا في أرض سلاطين الشمس الغربية فوق قوس الأناضول. نقودٌ حيرةٌ. نحاسٌ مستديرٌ بلا إتقان، ذو حواف رقيقة ممحوَّ ة النقش، ودواخل ثخينة في المراكز غير مستوية، تظهر الحروف عليها متقطِّعة. أسماء أئمة مطوَّ قة بإشارات من جبر الباطن ـ الألف المستقيم، والمثلث، وهاء الشبهة والمتاهة، وأقواس الحَصْر. نزوعٌ إلى اللاتعيين لا يُغضب المذاهبَ إذا غَلَبتْ أو انْغَلبتْ في الصَّ قع المترامي المشمول بمصادمات الملائكة من طوروس إلى صحراء الملح الكبرى بخراسان. ثلاث نساء قزلباشيات، من مجموع التسع، تخصَّصن في نقل الصباح من كمين النُّور إلى كمين المصكوكات النقدية، كي يُشرف أردهان من منبع ذكورته على العوالم النقيّة في بلَّ ور الجماد الناطق: «ربع قطعة النقد، في الحلم، يعني نزول ضيوف على الدار يحملون أقمشة. نصف القطعة يعني حلول حُمَّى من ريحٍ خبيثة. القطعة كلها، بتمام نقوشها، تعني غَدْرَ القربى بالمواثيق». لكن لم يحصل أن انفردت واحدة منهن برؤية أكثر من خيالٍ معدنيٍّ لا يشبه المصكوكَ النقدي تحديداً ، ولا يشبه غيره. إنما ـ بالجزم والقَطْع ـ هو خيالٌ من إشراق النحاس التركماني المصكوك بضغطٍ من أختامٍ محفورةٍ في كُعْبُرَة نمر الجَليد.

«الدنيا كأس، والفَلَ لك هو الساقي، والأَجَ ل هو الشراب»، يردِّدُ أردهان كلما فزع من الإنصات بعظام يقينه المتلامسة إلى إحداهنَّ. ويضرب على فخذها مداعباً: «أَمَا في نقوش نقودكم صورة طفل، يا أهل الباطن؟»، مُلَمِّحاً إلى سطر الله الناقص في سيرته هو، التي يأبى منيُّه أن يستحدث لها بياناً بآلهة الكمال في ترتيب الصور دُرِّيَّةً ، ونسلاً ، وزينةً ، وصيرورةَ لحمٍ وعظامٍ يكتسي بها القَدَرُ النَّحيل كمزمار المهرِّ ج. وذلك السطر، بتحديد الحبر الممحوِّ فيه من رداءة أخلاطه اللامُتْقَنَ ة، أَلْهَم الطاهي فرهاد أن ينزل، ذا فجر بارد، إلى سرداب راوند لور، وفي يده كُراتُ جوز. جلس على زرابية تحتها لَبُ ود أسود، مواجهاً الرجلَ الشيخ المتمدّد متكئاً برأسه على راحة يده: «أتنام الليلَ ، أيها السيد القاضي؟»، قال، وضغط الجوزات، حبَّة على الأخرى في راحتيه، فانفلقَتْ. ترك اللُّبَّ ينهمر على حِجْ ره فوق الجلباب، ووضع القشر القاسي جانباً.

«ما الليل، يا سليل الفقهاء؟»، رد الدهقان ذو البصر المحتجب في غمام الرجاء المدحور.

بقي الطاهي، المتوسِّ ل بمذاق المجهول إلى المعلوم، منصرفاً إلى كشف القشور القاسية عن حروف الطَّعْم ذات التلافيف الشبيهة بأدمغة الملوك. وضع في فمه فُصّاً. طَحَ نه. تمتم الشيخ الدهقان:

ـ الزبيب مع الجوز يخفف جفاف الفم في الفجر.

«يَعْلق غُ جم الزبيب بأضراسي، أيها السيد القاضي»، قال فرهاد.

«ما الليل؟»، عاد الدهقان إلى مساءلته.

«قِدْرٌ »، ردَّ حاكم المذاقات العادلة.

« قِدْرٌ تغلي »، قال الدهقان. تريث يستنبتُ حشائشَ لسانه الناطقة، واسترسل ثانيةً : « ما الذي يفور منها زَبداً ، يا سليل الفقهاء؟ ».

« اللون » ، رد الطاهي.

أنزل راوند لور ساقيه عن فراشه واستوى جالساً. حدَّق إلى الطاهي بعينين انكفأتا إلى تدبير السديم : « ظننتك ستقول : الألم ».

رد الطاهي عمامته الصفراء إلى الخلف قليلاً يحكُّ لَمَّةَ شعره، فوق الجبين. تقرَّى أعماقَ الشيخ بأنامل الحذر :

ـ ما الذي يجعل مَنيّاً يختلف عن غيره؟ لقد بلوتَ أخبارَ الذُّكْران الأقوياء والموْهَنيْنَ ، أيها السيد القاضي.

« خيالُ صاحبه »، ردَّ الدهقان من وراء ستر العبث الشفيف. تحسَّس علبةَ السَّعُوط الذهبية فوق غطاء الجرَّة، التي يحفظ فيها رماد المُلاسِياه. استنشق مثقالين، من كل منخرٍ دفعةً ، قدْرَ ما جمعتهُ السبابةُ والإبهام في رِفقٍ. هزَّ رأسه كي يتمكَّنَ طحينُ التبغ العسليُّ من النفاذ إلى قَدَرِ العقل، ويلتصق بالحقيقة النازفة فيجمِّد نزفها : « أيقلقُك أن أردهان لا يُنجب، يا سليل الفقهاء؟ »، قال الدهقان.

« هو ينجبُ ، قَطْعاً ، أيها السيد القاضي. له في أرض ميدو ذريَّةٌ من علوم المسالك التي تنتهي إلى خانِه ، ومن علوم النقش والتدبير.. »، فقاطعه الشيخ :

ـ لكنه لا ينجب أطفالاً.

« الأطفال يُعوَّضون »، تمتم حاكمُ المذاقات بنبرةِ المواسي، فردَّ الدهقان :

ـ لا. الأطفال خيال الرجل.

« وأفعاله أيضاً »، قال الطاهي ملتقطاً شرارةَ الحكمة النازلة إليه من فراغ المسكونات.

« اللحم الناطقُ أمرٌ آخر، يا سليل الفقهاء »، قال الدهقان الشيخ.

صمت فرهاد. مضغ فصّاً من لبِّ الجوز وهو يعاين وجه الرجل المتلبِّد في خسوف اللون :

ـ أليس لأردهان خيال ؟

« بل فيه إفراطٌ يبلبلْ الشكلَ. منيُّهُ مَحْوٌ من ازدحام الصور بعضُها ينهش بعضاً ، يا سليل الفقهاء »، قال الدهقان الشيخ.

صَمَتا. طقطقَ الجوز متكسراً في راحتي فرهاد الضاغطتين، في الفاصل الذي علا فيه بخارُ الثِّقل من خمائر العقل المنبسط على ثغرة المعلوم الحائر. تكلم الشيخ :

ـ اجعلْ على وجهه تبرُّجاً كلَّ عشاء، قبل مواقعته امرأةً من نسائه، وأطعِمْهُ خُصيً مختلفة.

سمَّر الطاهي بصره على الودائع الخفية في قسمات الشيخ : « تبرُّجاً ؟! »، تمتم بلسانِ المستنكر، وأردف المساءلةَ إلى المساءلة : « تعني أن أجعل على وجهه عصارةَ الورد بحبِّ السُّمَّاق؟ أن أدهن جبينه بالشِّيْرَج؟ أن أخطِّط حدودَ شفته السفلى بحبر صَبَّيْدج البحر؟ أن أمسِّد صدغيه بالحنَّاء المخفَّف؟ أهذا... ».

« نعم » ، قال الشيخُ بصوتٍ رنَّ فيه فِلزٌّ صلدٌ. ابتسم فرهاد :

ـ سيظنني أهذي إذا فاتحتُه بطلب كهذا.

« نعم »، رد راوند الشيخ، مثبّتاً بصرَهُ الفارغ على المعنى المرصود، فلم يطلب الطاهي إضافةً. طحنَ جوزتين في حِجْره : « ما الخُصى التي ترجّح أن أُطعمَهُ؟ ».

« الأقل استنزافاً للشهوة؛ الأقل تبذيراً في الجماع »، قال الدهقان.

« لا علوم عندي في خواصّ كهذه »، نَطَقَ حاكمُ المذاقات.

« دوِّن، إذاً، على ورق المقادير في الخواص: خُصى القنافذ، والأروى، وديَكَة جبال أرارات، واليربوع، والحدأة الشاهين ـ أسراب منه تقيم في وادي الظل؛ وذَكَر الطاووس، والشاذْهَوارْ.

« الشاذْهوار؟ »، تمتم الطاهي مستغرباً.

« حيوان النَّغم »، قال الدهقان. أحْكم يديْ يقينه على ريش الحضورات المسؤولة: « الصَّفير الذي في شعاب قرنه الوحيد سيوقظ ملاكَ النُّطْفة. شيء مَّا نائم في زلال ذكورة أردهان. آلهُ المجابهة مع السديم نائمة يا سليل الفقهاء، فادهَنْ عَتَلَتها المُحَرِّكة بمَرَقٍ فيه خُصى الشاذْهوار ».

هزَّ الطاهي رأسَهُ مُسْتَكثراً. بأرضِ رومَ زوجان من الشاذْهوار ـ زوجان ريحٌ في الغِياض المسوَّرة بقصب الملوك. زوجان هُمَا هُما، منذ عبور الإسكندر ذي القرنين أنفاقَ المحاجر، التي اقتلع منها جنُّ الأنهار الكبرى حجارةَ قصر الملاك الكَروبيِّ إبليس قبل العصيان. رجالُ فاتح الأقاليم السفلى والعليا، مرشد الحكمة إلى إسطبل العلوم بلا تعنيفٍ أو قَسْرٍ، سمعوا زوجي الشاذْهَوَارْ ينفخان من مناخيرهما المثقوبة سَبْعاً سَبْعاً على كل جهةٍ ما يشبه صوتَ القياثر في أرخبيلات البحار المفقودة. وإذْ أصغى بنفسه إلى الحيوانين، المُحتَجَبين في غلالةٍ من بخار الهَوْر الذهبيِّ، لم يتوقف عن البكاء حتى بلوغه، في المساء السادس والعشرين من ميسرته، أرضَ التيه الأصغر، التي ينبت فيها الفُطر مُخْتَبلاً من رائحة غدَّة سِنَّور الزَّباد فائحةً كشقيقيها المِسْك والعنبر. بَدْليس، غلام الإسكندر، المتنصِّت على خزائن الهندسة العريقة في إشارات الكهانة، انتشل الرموز الأكثر غبرةً. مسح الهَبابَ عن أرقام التدبير، وأسند الخطوطَ المستقيمة إلى نهايات المُطْلَق المنعكفة على نَفْسها، فخرج من بين يديه، من شرانق السديم المسفوح على ورق المعماريّين، فَرَاشٌ يحلِّق مثلثاتٍ مثلثاتٍ. أكمل الرسومَ الدهرية بأقلام الوجود العارض حتى انتصبت قلعة من حجر وطين على الهضبة هناك، بجدران مائلة تتلاقى في الأعلى كسُلالتها الأخرى من الأهرامات ـ تلك المدائح المعلّقة من أثدائها إلى كُلاَّبات البلاغة العدمية. ثم جعل على القلعة رَصْداً من أسرار الخلود المتاه سمَّاه « طلَّسم الباب »: آدميٌّ من نحتٍ بارزٍ في صخرة عظيمة، يحمل على كتفيه ثعبانَ الحجاب الأبديِّ، المشرف من جهالة الجماد على الوجود المدوِّن مسالكَ التصاريف. ثعبان بعين واحدة لم يقيَّض له، في الأرجح، أن يهتدي إلى شجرة الرَّازِيَانجْ، التي من خواصها أن تعيد البصرَ إلى سلالته في آتي الزمن، المحكوم في روايات العِلْم المُشْكِل بصناعة أحداثه الواضحة، المُسَطَّرة قبل وقوعها بحبر المصادفة الجبرية. أحفاد ذلك الثعبان مسحوا عيونهم العمياء بالشجرة تلك فأبصروا خيالَ الموجودات ظاهراً مرئياً، من ألواح الغيم حتى شهوات السيدة « عُنُق »، ابنة آدم التي عزا إليها العارفون كشوف البغاء، في السنة الثانية من نزول أبويها إلى حراثة الأرض، متلقِّفين من السماء بذور الحنطة والدُّخن. الريحان، الغامض التأويل، هو ما ستهديه

الأفاعي إلى كسرى فارس، فيكون لهذا النبات ظهوره الأول في عهده، بعدما خُبِّيءَ بزره طويلاً عن آفات العصيان المتقنِّعة في أشكال العِطْ ـر. والقلعة، التي بُنيَتْ مشرفةً من الهضبة على أقواسٍ من متاهات الظاهر، مثلثةَ الحجرِ ، مثلثةَ الحيلة؛ القلعةُ الخيالُ المنصرف إلى تأويل الخلودِ الثعبانِ ، سُمِّيت باسم غلام الاسكندر : بَدْليس.

لم يدوِّ ن الطاهي فرهاد، في قائمة الخُصى المبوَّ بة على حروف المعجم الناقص، ما يتَّصل الشين فيه بحيوان الشادهوار، بل نزل به إلى الشادن، بعد إفتاء من الدهقان راوند لور بجواز تعريب اسم ابن الظبية الوارد على صورة حرف آخر بالكردية، كي يتمكن المعنى من الاستحواذ على ضلالة الشكل، ويروِّض الكثافةَ التي هي تورية الله الأولى حين استولدَ الروحَ من شوقه إلى ابتكار المرئيِّ. شفرة رهيفةٌ جَبَّتِ الكُرتيْ ن من أصلهما المتصل بإحليل الحيوان المنحسر إلى سديم الباطن، تحت حجاب الجلد. ارتعشت قوائمه المُحْكَ مة الوثاق، ونطق لسانُه ـ لسانُ الأكيد الذي يعيد اللغةَ إلى طبعها استغاثةً يتوسل بها العبثُ إلى المشيئات : هكذا استقرت خصيتا غزال من غزالات زانا خاتون العشرة بين يدي دَرْدِيْ وَ ا، ابنة الطاهي، دافئتين في صفنهما المغطَّ ى بوبر أبيض. حامو، أحد مساعِدَي فرهاد الموكَّليْن بشؤون المؤنة يُ حصيان النواقص فيكملانها من تجار الزاد والتابل، ألصق الحديدَ المُحمَّى بموضع النَّزْف. اختبلَ دخانُ الكيِّ من نشيش العناق بين المعدن واللحم. فُكَّ وثاقُ الغزال في حظيرة النعاج التي اقتيد إليها فاستوى واقفاً مصعوقاً. ارتجَّ عِرْ قا صدغيه، وتدحرجتْ خدعةُ الحياة قطرةَ دمع من زاوية عينه اليمنى.

زانا، التي شقَّت كمَّ قميصها كَمَداً من أثر الغدر، وهي القمينة أن تُبَلَّغ من قَبْلُ بالإهانة المُحاكة لحيوان حديقتها، ضربت عنقَ الغزال بحدِّ اليَطَق الذي استلَّ ته من حزام الطاهي، فوق الحصباء المحيطة بالفُسقيات الستِّ ، في اليوم الثاني من إخصائه. حزَّ ت، في لَمْح كشهاب النقائض بين يدي الملاك نمرود الهارب، بلعومَهُ الرقيق ووريديه. شخر الغزال مبهوتاً. ركضَ في اتجاه الأبواب الأربعة الدفينة في رمال خياله كي يعبرها إلى شفق الغيبوبة الرحيم. سقط في البهو الشاسع، الحجريِّ المُطوَّق دائرةَ الحصى بحنانٍ ، ثلاث مرات، بانزلاقات من أظلافه على الدم. سقط ونهض. أحصى صورَ الحقائق المُمْتَحَنةَ بألمه، ثم استسلم للأرقام الكبرى تحت ساعة الفراغ السحيق. ترك جسدَه لحجر البهو الصقيل لكمالٍ نائم، وألقى بخيال كينونته الثانية إلى شِبَاك المغاليق.

بُهِتَ الجالسون على زرابيات البهو آنئذ، وقد مسَّت نعالَهم – المخرومة الأعناق فوق أرساغ الأقدام بسيُورٍ من عَصَب الجِمَال المغولية ـ رذائذُ الحياة النازفة حمراءَ من عنق الغزال. رنَّ في عظام أعقابهم حديدُ اليطق إذْ رمتْه زانا من يدها متبوعاً بالقَسَمِ الكامل ـ قَسَمِ العناصر الستَّة التي يزن بها الوجودُ عقلَ الظاهر الكلِّيِّ؛ قَسَمِ الماء، والهواء، والتراب، والنار، والروح، واللون : « لا أكون زانا خاتون، ابنة السنجق بَ كي ابراهيم عز الدين أخلاطي، إذا تركت أحداً يمسُ هذا الغزال »، وأوحت بدفنه إلى عمال زوجها في حقول الريحان القرمزي، وزنجبيل عُ مان، والأقْسَنْتين الروميِّ ، والسُّورنجان القويِّ في التداوي به من آلام النقرس؛ أوحت إليهم فدفنوه تحت بقايا القوس الرابع من فسطاط « ميدو » الحجري المتناثر.

لكن أردهان كان قد التهم خصيتي حيوانها قبل ليلتين من دفنه، مسلوقتين في رُبِّ العُنَّاب الحامض

مع دقيق ملتوتٍ في شحم البطِّ . وزاد فرهاد في مواءمة موصوفات الباه على مراتبها اللونية فزيَّن الخصيتين بورق العَبَيْثُران النيء. ثم تتالت على ليالي حرَّاث النقش أردهان راوند لور خُصى البهائم النبيلة، المعلومة الأنفاس شهيقاً وزفيراً بعدد مراتب الغابات الدهرية، وسهول التدوين المُحيِّر بأقلام الريح؛ خُصى الوَرْوَر الصغيرة كحبوب القمح، وخُصى الحجل المستطيلة كحبوب الفاصوليا، وخُصى القنافذ المسطَّحة، وخُصى ضبِّ الرمال، وخُصى الشواهين ذوات العروق الصفراء، وخصى التيوس المغلَّفة بقشر أزرق، وخصى ثيران الهور في نواحي الخابور، وخُصى الجِمال، والأكباش التي لم تُسَافِد بَعْدُ ، وخُصى الثعالب واليرابيع. كلُّها قُشِّرت بأناة، ومُلِّحتْ ثم غُلِّفت في صُرَرٍ كتَّانٍ على غصن من شجرة الميْس يواجه الشرق، كي يهبَّ عليها نَفَسٌ من يقظة النور التي هي برهان الشكل على استعادة عافيته صورةً جسْماً وظلالاً . علوم التقدير الصغرى توكل الخصية بتاريخ هو انحسار السديم عن خيال الإنسان، الذي لم ينجب بنيْنَ في رفاهته الأولى تحت نقوش الفردوس. في الكمال ـ تقول علوم التقدير الصغرى ـ لا اقتدار للعقل على توليد الجسارة. الفردوسُ الكمالُ حجب العقلَ عن استيلاد ذاته في خصائص النقصان الجَسُور : لقد أُعطيَ الأسماءَ الكُلِّية مدوَّنةً على اللوح، والثناءُ ـ وحده ـ هو ما يتوجَّب عليه أن يرهن به خصِّيصتَهُ كعقل. ولمَّا أُعفي الإنسان من حاصل وجوده الفردوسيِّ ، الذي تبنَّى نشأتَهُ إنساناً ، ونزل من مقام الكمال إلى نقصان الطبائع الكثيفة، استعاد الخيالُ في الذّكَر مشيئةَ البرهان، فاستولد ذاتَهُ من خصيتيه بآلة الأنثى التي هي حاصلُهُ : هناك، في الوعاءِ الصَّفن الرقيق، المتجعِّد، المنكمش كقطيفة، أسَّست الصورُ لصناعتها حَلْبةَ الشكل، ومهَّدت لانبثاق المنظورات.

« أعطه غذاءً فيه عينُ الماهية ». هكذا ألزم الدهقانُ طاهي البيت بإرشادٍ من عقل المُعْضِلة، ورسم بإشارة من يده، في الفراغ المصكوك كدرهم القزلباشيين، كُرتيْنِ هما مجموعُ الأرقام الأزلية. وأكد الصورةَ فوضع راحته، في جلالٍ ، على موضع خصيتيه.

غير أن أردهان تحوَّط، منذ إخصاء الغزال، لشأن نَفْسِه إذ رأى في عيني زانا توريات الحيلة، وسمع من قلبها طنينَ يعسوب الزِّنْجَفْر ـ حشرةِ الثأر : « ستدسُّ هذه المرأة في طعامي سمّاً ، يا فرهاد »، قال، مصارحاً حاكمَ المَذاقات.

« سنحتكم إلى الحجر »، ردَّ الطاهي.

لا علوم تنجو من البُحران إذا هبَّ عليها نَفَسٌ من لغز الحجر. فلزٌّ كريمٌ ، وفلزٌّ متواضع، وفلزٌّ رديء. خيال مرفوع بعَتَلةِ النار إلى مشهد المُعضلة الخلاَّقة ـ معضلةِ حساب الصيرورات بأرقام الله العَدَمية. الكمال المائيُّ ينحسر طائعاً أمام الكمال القيد ، ذلك الارتجاع الصلب للجفاف الذي انبثق منه التراب الصلصال حيّاً ، خفيفاً في نور شهوته. وُضِعَ الصلصال أولاً بين يدي المشيئة؛ وُضِعَ الفلزُّ الصلب أولاً ، قبل انقلابه طيناً من سَكَبِ الماء. الخيالُ المتحدِّرُ من نشأة خواصه الصلبة وزَّع مراتب المُحْدَث ـ أصلِ الحيلة وكتابِها ذي الغلاف الهاذي : حجرٌ زينةٌ. حجرٌ ملجأٌ. حجر سُمٌّ. حجرٌ حِيْطةٌ. حجرٌ ترياق. على الأرض بدأ كل شيء في اتجاه السماء، حتى أن الجحيم ذاتها يكون وقودُها الحجر. لا بأس. فصوص الزمرد للزينة، والصوان للقلاع، وسُحَاقة الماس للموت تسميماً ، والخزف المرقون بالحروف للرُّقى، وسُحاقة حجر المغناطيس للترياق الذي يُبطل السمَّ . « ضع هاتين الخرزتين في مكان ما من

ظاهر ثوبك»، قال الطاهي لحرَّ اث النقش، بعد يوم من مفاتحة الأخير له في ريبته من زانا. خرزتان عُلِّقتا بخيط ذهبي إلى كتفه اليسرى. «إذا قُرِّب منهما السمُّ عرقتا عَرَقاً كالندى»، أضاف حاكم المذاقات.

الياقوت الأسَمانجوني يوصف ترياقاً لدفْعِ السموم جميعها، من الأفعى حتى الزرنيخ. أخوه الماس الأصفر يعرق إذا قُرِّب منه السمُّ. تيمور كوركانْ لنْ لك، الذي عضَّ أصابعه أمام حجارة قلعة الجزيرة، في أرض ماردين، وأقسم ببيْضِ سمندل النار وتنين الريح الأخيرة أن سيذبح الهواءَ نَفْسَه إذا لم يسلِّم إليه الكردُ شيخاً فرَّ إليهم لاجئاً، لم تكن لوعته على زخْرفِ الذهب وفصوص البلورات النبيلة، بل على خرزٍ كوَّرَهُ مُتقطعاً بشفرات الرصاص الأسود من ألواحٍ حُملت إليه من محاجر ما بعد ليل السهوب الكبرى. وثق بالشيخ موجود بن رُوْنَا فحمَّله تُحفاً إلى عمٍّ له ففرَّ الشيخ بالنفائس إلى حاكم قلعة الجزيرة الأمير عز الدين المعدود من حكام العزيزية. أربع خرزات فتحت لقلب تيمور كوركان لنك علوماً لم تكن لأناس قبله: تخاطُر الحجرِ البلَّورِ والسم. غوَّاصون في متاهات المعلوم المجهول عثروا، بإشراق الخيال وإرث سِحْ ره، على مفاتيح المقدور الصغيرة، يفتحون بها خزانةَ الكَرَم ـ خزانةَ الخواص الممحوَّة القُفْل إلاَّ من نتوءٍ رَمْلٍ. نكتوا الرملَ بعيدان شجرِ المُصْطَكى ربيبِ هواءِ الخليج المفقود في بحر الروم، فانجلت لهم المساراتُ العَشْرُ بين الهواءِ البلورِ من جهةٍ والماءِ المحموم من ثقل عِلْمِ السديم: عناصرُ الحيلة وعناصر النشأة في اضطراب، تتمازج ثم تتفارق. ومن المحنة يتولد البخارُ العريق الذي يتكثَّف فيكون السُّمَّ.

قَطْرٌ متخثر، أو قَطْرٌ سائلٌ، مُ ميتان، يتبعان الحياةَ من مهد بذرتِ ها. غير أنهما مسكونان، في الآن ذاته، بكرامة المحنة المخصَّ صة لأقدار الأحياء، فتصيبهما الحُمَّى. قَطْر متخثِّر أو سائل تصيبه الحُمَّى فيعرقُ حين تدنو ذرةٌ منه من ذرة أخرى في جنسه. تيمورلنك تسلَّم حُصالةَ السرِّ من غوَّاصي متاهات المعلوم المجهول، فحفظ لنفسه خرزتين، وسَيَّرَ الشيخ موجود بن رونا بالخرزتين الأخريين لتكونا وديعةَ شفاعات الوجود الكشَّ اف في خزائن عمه، بأرض قرقروم.

حمل الرسلُ الناطقون بألفاظ الكرد الهائمة على وجوه مجازاتها الظاهرة خطابَ الخان المتزلزل تهديداً: «سأذبح الهواء. سأذبح الحجر. سأذبح الطير. سأذبح الماء. سأذبح الغيم. سألجم الريح سبعين فرسخاً في محيط قلعة الجزيرة حتى يبلغ النتنُ الوباءُ عُمقَ أرضها سبعين فرسخاً، فلا تتعافى الحياةُ فيها ثانيةً إلا إذا نما حجرُ الحية شجرةً بتسعة أغصان، على كل غصن ثمرة من روح الناموس الأصغر ـ جَدِّ الهاوية الكونية».

لن ينمو حجر الحيَّ ة، بالطبع، لا في أرض الجزيرة ولا في غيرها. هو حجر من زبرجد أسود، ذو عروقٍ شُعَبٍ من عصارة البرق البيضاء حين تصير جَمَداً. فيه خيالٌ من متاهات الغيم، وعقلٌ دخانٌ صلبٌ من انقباض البلور عليه، إذا طُحنَ استعاد فاقدُ الذاكرة ذاكرتَه باستنشاقه سَعوطاً. تيمور كوركان لنْكْ لن يترك ذاكرةً لقلعة الجزيرة على أية حال. ستتطاحن في السَّحَ ر المذبوح بمدية المصائر المعلومة حجارةٌ من حقائق المعدن الجماد والمعدن النبات، تاركةً للنَّ واح الذهبي أن يملأ تجاويف الريح وتلافيفها. كُتبُ الخواصِّ المعتمدةُ في مسالك العلوم والطبائع تؤاخي المراتبَ بعضَها في شفاعةِ

بعض، فما يكون صلباً يتنفَّس من أسمائه اللَّدنة، وما يكون لَدناً يتنفَّس من أسمائه الصلبة. « حجر الإسفنج » : حصاة في خلية الحيوان الإسفنج تتداوى به المثانة إذا انعقد الكلسُ في المجرى. « حجر إقْريْطِس » : كحل للعين الرمداء. حجرٌ بمصر صفته « القبطيُّ » يجلو الكتَّان غَسْلاً ، وتندمل به الجروح. « حجر الكلب » يتخذه السَّحرة لإيقاع الشرِّ بالمحبين، وإحلال التباغض بين الخلاَّن. « حجر البقر » غايةُ النساء في طلب الشحم تحت جلودهن كي يقع الذَّكرُ على وثيرٍ من اللحم في مناضَلات الجماع عن الرَّهْز، ويكون الفَرْجُ رابيةً رجْراجاً يقرعه القضيبُ فيرتدُّ عنه ليعود إليه أكثر هياجاً في ارتطامه به الكَرَّة تلو الأخرى. كلما استدار القمر بدراً اكتملت نشأةُ هذا الحجر في مرارة الثور. يُسحق مع اللبن. يا للَّحم. « حجرٌ أرمنيٌّ »، أغبر، يرقِّق المزاجَ إنْ خالطتْهُ السوداءُ. « حجر البُسَّد »، النباتُ المرجان، المتحيِّر في انتسابه إلى الماء أم إلى الهواء. « حجر مَرْقَشِيْثاً »، أو حجر النُّور. يقوي البصر، ويُتَّخذ رقْيةً للصِّبْيان فلا يفزعون. « حجر الكُزبرة »؛ هكذا تقدَّم اسمه. ينبغي تشطيرُ الكتلة منه أربعة أنصافٍ في البيت فينشطُ القلبُ ويستروح الدماغ. فإن لم تكن أنصافه الأربعة على تساوٍ ظهر الخَلْط في استذكار الأسماء. ونسبتُه إلى الكزبرة لها حُكمٌ من وحي النَّمل، الذي عجَّل به الإلهامُ الحيواني إلى إدراك الخواص، فاستنسخت علومَه العلومُ: كلُّ بزر إذا كُسِّر نصفين لم ينبت في البذار إلاَّ الكزبرة. نصف البزرة منها ينبتُ كالكاملة، لذا يعمد النمل إلى تشطيرها أربعة أنصاف حتى لا تنمو في جحوره. « حجر الصوفيين » بَقْلٌ من بقول الأحواض الراكدة، ينمو عليه وَبَرٌ زَهْرٌ في غاية الرقة أربع مرات في اليوم الواحد. غير أن في الأصناف المبذولة الأسماء نوعاً دَرَجَ الاسكندر ذو القرنين على حفظه في جِرابٍ من جلد الزرافة، مكتوب عليه بلغة أهل الخليج التائه ـ خليجِ بحر لُوْث المحمول على قرنيْ أفعوان الدَّهر : « الماءُ لسانُ الخزائن، يصفُ بحروف الحِيْلة جواهرَ المعمور والمهجور ». إنه « حجر الإمتحان ». كُرة غير متساوية الإستدارة، تنطبق عليها راحةُ يدٍ بأصابعها، فيها خمسةُ أثلام، رمادية، عليها عروق نافرة كعروق الآدمي، صفراء باهتة. حجرٌ كُرَةٌ يزن به الإسكندر مراتبَ الماءِ قيمةً : الثقيل على الهضم والخفيف على الهضم. الأنقى والمتكدِّر. الحلو والمالح. الزائدُ نِسْبةُ معادنه وناقصها. تؤتى بالعَيِّنة من الماء في قصْعةٍ ثم يُرمى الحجر فيها، ويُلْحَظ ـ بالتدقيق العارفِ ـ صدورُ الفقاعات من خَلَل الخمسة الأثلام ، متلاحقةً أو متباطئة، صغيرةً أو كبيرة، متماثلة في صعودها أو مستقيمة الصعود. هكذا يُجَازُ استخدام ذلك الماء شُرْباً ، أو اغتسالاً به، أو سقياً للبهائم، أو ريّاً للحقول. والاسكندر كان يطلب الماء الخفيف على الهضم لجيشه، في عبوره المجاهل البكْر، وشموسَ الطبائع المشرقة على تراب الأقاليم العليا والسفلى. وهو الذي أفتى في شَرَفِ مياه دجلة، وينابيع بدليس، حيث دوَّن قيافو الأسرار عجائبَ الظهورات القدسية : في هواء المكان الذي سُمِّي باسم غلامه شهد الناظرون ضمورَ قرنَيْ الاسكندر وامِّحاءَهما.

« سأذبح الحجر »، قال تيمور كوركان لنك. عَرِقَ قلبُه عَرَقاً بارداً من جَزَعِه على خرزتيه أن تقعا في يدين لا تتكلمان بكلام الأقدار كيديه ـ كلامِ البلاءِ والنغمة. « أعطني الشيخَ الهاربَ أَحفظْ عليك شفاعةَ قلعة الجزيرة »، ـ رسالةُ السيلِ المُمْتدحِ بهبات الغرقى حَمَلها آخرُ رسولٍ يُلْحِنُ بالكردية إلى أمير قلعة الجزيرة عز الدين، الذي أكد له كبدُهُ ، بإصغاءٍ إلى لهاث الحوت الأعظم تحت أساسات

أسواره، أن لا أحد يملك جلالَ تهديد القلعة سوى الريح إذا هبَّت موسومةً بوشم الوباء الأعظم من اهتراء الأجساد على المشارف ـ أجساد القتلى آدميين وبهائم. لكن لا حرب على المشارف. لا وباء. لا أختام للريح غير ما تصرفُ به شؤونَ النَّقل من نواعير الله الخفية إلى حقوله الخفية. «هات أمعاءَ الخراف المحشوة بجوز أورْفَهْ. والدُّراج المطهو بخَلِّ رَشْتْ. هات السِّكباج، والفالوذج عليه قَطْرُ العسل، أيها الطاهي. افرشوا ظهرَ السور، قرب المرصد الكبير، بجلود نمورٍ صحراء الحجر، وأحيطوا المجلسَ بمشاعل من نفطٍ ممزوج بعُدَّة الزَّباد وشحم سنام جِمال بايْزيدْ. سأجعل جيشَ هذا الملتصق الأجفان يغرق في لعابه وهو يشمُّ دخان تبغ خُوذاتْ المُعسَّل من جنى النحل في بساتين القيامة». ذلك ما قاله الأمير عز الدين، الذي اصطحب ضيفَه اللاجئ إليه إلى عَرْضِ علياء السور، ثلاث ليال متتاليةً لا ينبلج عليها الفجر إلاَّ مبتلاً برسم الذبائح المشوية على نار أغصان البُوْرَق ـ ذي الحَبِّ المُنْعِظ ذكر الرَّجل إنعاظاً لا ارتخاء بعده ـ وقد طُعِّمت ببَعْرِ التيوس وبعظامٍ من ترقوات الجياد لها وَقْدٌ لا يطفئه سوى الماء. غير أن تيمورلنك داهمَ خيال الأمير بأهرام من الكلاب المقتولة في مواجهة البوابة الكبيرة، حيث الكوى المُسَطَّرة طولاً في السور يرصد منها الحرسُ العراءَ المترامي، وغطى جثثها بألواح من الخُوْص المشدود بعضه إلى بعض بألياف نباتٍ ستة أيام احتقنت فيها روائحُ الفساد فأطلقها، بكشف الألواح عنها إذ واتته الريحُ منعكسةً صوب الأسوار. أربعة أيام لا غير: كلَّما اتجهت الريح صوب الأسوار كُشِفَتِ الجثثُ، وإذا تغير الهبوبُ غُطيت الجثثُ. لم ينفع الحراسَ ما تلثموا به، فكادوا لا يأكلون. أُلْقيتْ إليهم بالسهم رسالةُ الحثِّ على التواطؤ مقابل عفوٍ متبوع بياقوتة وأربعين فِلْساً ذهباً. فُتِحَتِ البَّوابة، فاختلطت أعضاء الآدميين المبتورة بأعضاء البهائم.

«سأذبحُ الحجر»، كرر تيمور وَقْدَ وعيده بالزناد القادح في غابة كيانه. جَمَع الأسرى رجالاً ونساءً، وقرأ عليهم بلسان الهاوية ما لا يترجمه إلاَّ التيه: «ستنقلون حجارةَ القلعة وسورها، في ثمانين اتجاهاً، توثقونها بالحبال وتجرُّونها»، فجرُّوها حتى تخوم ممالك الأقوياء المجهولين، ذوي الأسماء المنحوتة تسعة أسطر في ألواح الصين وهضبات أُمم الياجوج المعدودة خلائقَ مبهمةً في التعريف. غير أن الأمير عز الدين نجا بنفسه على نحوٍ لا يُحاطُ بوصفه، وقضى عمره متجولاً في ديار الأرمن والفرس لا يعرفه أحد، حاملاً في جيب قفطانه الوحيد، الموشَّى بعروقٍ خضراء من حرير بدليس، خرزتين اشترى بهما من الورَّاق حَمْدين أشرف زَنكنَهْ سبعين صحيفة خشنة من صناعة «دار الجَبْر في تدوين المُخَيَّرات» ببلدة أخلاط، وبعضاً من حبر الزَّاج، مصرِّحاً للوَّراق ـ الذي أنجب له ابنُه الفقيه في معاني التَّثليْث حفيداً هو الطاهي فرهاد ـ بعزمه على وضع أشعار عن إمارته التي تنتظره في المنعطف الثاني بعد نهر الغيهب، وراء أكَمَة الجودي الكبرى من جهة الشرق: «ثمانمائة وأربعة وثلاثون بيتاً من الشعر. لا أقل ولا أكثر. حَرْفَهْ الكردي لا ينبغي أن تُجاوز ذلك. تصريحه بلوعته لا ينبغي أن يُجاوز ذلك»، هكذا حدَّد الأمير غايةَ خياله في بناء المعاني الصغرى. ولَّما أبدى الورَّاقُ شكّاً مهذَّباً في إمكان أن تتسع الصحائف السبعون لقوافيه المتزاحمة في غسق عينيه ابتسم الأمير: «الورق لا يخذل أحداً». ثم لم يُعثر على أثر له بعد ذا. قيافون من إقليم أرجيش ذي الأغوار الكلسية، وقيافون من زارا المسوَّرة بهضبات الكنوز المرصودة، تتبَّعوا أنفاس الأمير المنكوب كي يعيدوا قلبَهُ، مُصاناً بعض الشيء من ذلٍّ

التيه، إلى المعترفين بنجداته من أمراء أقطارهم، فأخطأوا رَصْدَ خياله: لقد انسرب الرجلُ الملتاع ذائباً إلى قارورة السرِّ ليقتبس لنفسه شرارةً من معنى «المفقود». أشعلَ الفتيلَ الغامض، وأغلقَ معدنَ المصباح على زيت المعقول المجهول.

تصادمت الخرزتان الصفراوان على كتف أردهان اليمني حين جلس على الأريكة الخضراء، في الفسطاط الحجري المُغْلق، بعدما حثَّ ضيوفه السبعة، واحداً واحداً، على الجلوس. هرعت الفتيات الأربع، ذوات المناديل الثلاثة المخيَّطة بالفلوس الفضة كالخوذات، والعمامة التي تتدلى منها ذوائب من وَدَع بحيرة وانْ. حملن وسائد زرقاء، وسوداء، وحمراء، حَشْوُها رِيشُ القَبَج، وأغلفتُها قطيفةٌ موشاة برسوم الهدهد طائراً؛ ثلاث وسائد للرجل الواحد يميل عليها بكتفه نصف متمدِّد. الحضور الآخرون اقتعدوا الزرابيات الفارسية والبُلُسَ الأذرية. دخل حامل قِرْبة شرابِ الأتْرُجِّ المفضَّل لدى أردهان؛ شراب النظر بعين الدم النهمة إلى اللذة. تبعه حامل الكؤوس الصلصال الحمراء، المطعَّمة الأعناق الدقيقة بخزفٍ كالرمل ذي بريق كسول. ترقرق الشراب في الحناجر بنداء القِدَم البارد ـ قِدَم الماءِ اللِّسان الذي كلَّم العَدَم بأدبٍ من طباع الوجود. علت همهمات الحديث بدخول سرب من السنونو إلى مغاليق القبة العالية: «لم يهاجرْ بعد»، ثم هدأتْ بدخول زانا خاتون آتية من ممر لا باب بينه وبين الإيوان المتصل بحديقتها المسقوفة. نهضت الغزالات التسعة تتبعها بعيون الكمال الساهر في طباع الحيوان. حيَّتهم المرأة الملثمة بطرف خمارها الأرجواني، المصفَّح أربعَ دوائر على محيط رأسها بدراهم ذهبٍ تُصْدِرُ وشوشةً من لغة الكنوز الأمينة. ألقتْ تحية الرجاء الكرديِّ عليهم ـ رجاءِ العافية للروح أولاً، وللجسد ثانياً، وللنَّسل ثالثاً. جلست على حشيتين من الصوف مستطيلتين على مبعدة من الرجال، وهي تردُّ أذيال قفطانها الطويل على حِجْرها. أومأت إلى امرأة واكبتها منذ دخولها الإيوان، فجلست الأنثى الملثمة، الأخرى، بدورها، على بُعْد شبر من كتفها اليسرى.

صفَّق أويس أُوْسِنْجان بأجنحة الكلمات من حنجرته: «وصل إلى خاننا أربعة من حَمَلَة الأكفان، هذا الفجر».

حدق الضيوف إليه. رنَّت الهيبةُ رنينَ النحاس في الفراغ القُدسيِّ. مدَّ أردهان يدَ خياله يستعيد البرهةَ المُخْتَطَفةَ: «هذا سِنْجَقْ بَكِيْ إقليم ميدو»، وأشار إلى أويس. علا الضحك. «سنجق بكي» هو أمير راية في لفظ ملَّة العثمانيين، وحاكم خُمْسٍ من ولاية مقسومة. لقبٌ رفرفَ خفيفاً حول رأس أويس، الذي حَصَرَ قلوعَ العوالم التائهة بعينه اليسرى الوحيدة، وتراجع بكلماته من عَمْر الرموز المتَّصلة بَحَمَلَة الأكفان إلى منابت الرَّقم: «إنهم سبعة، يا سيد أردهان».

«أرى ذلك»، ردَّ حرَّاث النقش، والتفت إلى ضيوفه الجالسين نصفَ قوس إلى يمينه: «طَلَبْنا ثمانية كراماً من أهل التدبير في خوارق المُؤْتلِفَات، الصُّنَّاعَ المحتشمين في نقل خيالهم من الطيش إلى الترويض. حضرتم أنتم، واعتذر الثامن». نقَّل بصره في جَمْع من روَّاد مجلسه: «هل اعتذر عن عدم الحضور؟» فَهَمْهم اثنان:

ـ لم يؤكد على وجه الجزم.

«لا بأس. كان من سَعْدِ اللون في حضرة النقوشِ ـ الرسومِ لو أَمَّ دارتَنا مَيْكَر بابو. تعرفون مَيْكر؟»

ساءَل أردهانُ السبعةَ ، فهزوا رؤوسهم اتِّفاقاً : « نسمع به، كما سمع واحدنا بالآخر ـ نحن الجالسين هنا »، قال جَابَانْ زَرُوْ ، ذو اللحية الدائرية، المشذَّبة بإتقان. ابتسم الآخرون. هم، حقاً ، لم يتعارفوا من قبل إلا سماعاً من سعاةٍ في نقل ثمرات الأخبار من مجالس الولايات، التي يُعلن منها مولدُ الرسوم الكبيرة على أيدي صيارفة الخطوط الحذقة، الذين يتبارى الولاة في إعلان مقادير الهبات الممنوحة لهم: تزيدُ الهِبَةُ تزيدُ المباهاة. يكبر النقش في الأروقة، أو الرسوم في صدور الإيوانات، فيكبر النبأ. لكن أردهان، الذي جمع سبعةً من صنَّاع الجسوم مستولَدَةً من سديم اللون المُغْلَق، لم يتوقَّف عند سَعْده الطالع عليه من أطلس الفروق الفَلَكية، بل مال قليلاً مع هبوب القلق الصلصاليِّ على خمائر العقل : « لا أكتمكم، أيها المرفَّهون بالَوهْبِ الفردوسي منذ قُدِّر لخيالكم أن يجاور المجهولَ المُتَعيِّنَ صورةً في حقائق الله؛ ـ لا أكتمكم أنني في حيرة من أمري، قليلاً. لقد أبلغكم رُسُلي بالغاية من تكليفكم الحضورَ إلى دارتنا. رَأَيْنا أن تكون لنا تحفةٌ من جلال الوسائط بين العين وبين المستور. وتوسَّلْنا بشرف الخصائص في المُقْتَنيات الأكثر كمالاً أن نحوز منكم على النفيس من صور الأقرباء في حقائق الله إلى الجلالِ العالِم. أوقِفْنا قلوبنا، ومذاهبَ أبصارنا على السيدين العادلين في ميزاني علومهما الذوقية، الشيخين بهاء الدين الفاروقي النقشبندي، وعبد القادر الكيلاني، حفظ الرحمن سِرَّهما. وكانت بغية وجداننا أن نحظى بأربعة رسوم لكل جليل منهما، لكن غياب ميكر بابو أوجبَ خللاً ، وأوقعَ التقدير في الوسواس. فماذا ترون يا أكابر النقوش؟ ».

« لا إشكالَ »، همهم دَرْبَنْدْ كَرْمَانْ ذو البشرة الحمراء. فتح راحة يده اليسرى يعيدُ بها ترتيب النُّقلة بين المرئيِّ واللامرئيِّ ، فالتمعت فصوصُ خواتمه الثلاثة، السوداء، المحزَّزةُ بخطوط المتاهةِ ـ الدوائرِ المتداخلة للتمويه على استغاثة المعنى. « أنا أرجع إلى موش. سُعدتُ بالتعرُّف إليك يا سيد أردهان »، قال، ثم ضمَّ راحة يده يقبض بها على صروف الحكمة، واتِّزان الرَّقم الذي أعاده ستةً يقبل القسمة بنداء الواحد اللامنقسم: ثلاثة وثلاثة. اعتدالٌ وسيطٌ يحفظ اللونَ عادلاً في توزيع الحقائق على رسوم الشيخين المُنْتَدَبين على براهين المقامات السريَّة.

« لا » تمتم زَعْروسْ عُوْنيْ في همسٍ ضارع. دار بعينيه الصغيرتين على غمام المعاقل في العيون الأخرى، الشاخصة إلى اعتراضه: « أنا آخر من حضر إلى الخان. لي خطوة ناقصة في الذي يترصَّده المكانُ ويدوِّنه. سطري سطر ناقص، حالما يكتمل تكون سطوركم قد زادت. لا أحد يدخل حيزاً وتكون لشخصٍ يليه في الدخول المقاديرُ ذاتُها من ترويض الأبعاد. أنتم تتقدَّمونني، يا عقولَ النقش الجليلةَ ، بمثقالٍ من الأرق ليس في ميزاني بَعْدُ. سأعود إلى خيزان ».

لم يوافقه الستةُ الآخرون. هزوا رؤوسهم وأيديهم اعتراضاً. تقلَّبت صفحاتُ السكون بنَفْخٍ من فم النشأة الأزلية. تقدم غزال من المجلس خارجاً من خليج الحصى. تبادل والجَمْعَ أنفاسَ الطبعِ الأعظمِ ـ طبع الخصائص الكليَّة في لوح الظاهر، ثم التفت إلى زانا خاتون التي نطقت من تخوم البرزخ : « أعِدُّوا قُرعةً بحجرِ النُّشادر ».

انتقلت العيون، في حياءٍ يليق بمقام المرأة الأولى في عصمة أردهان، سيّدةَ الموازين المنصوبة في هواء الأروقة والحُجرات ـ موازينِ الحيلةِ المُؤَيَّدةِ بعلوم المكاييل البلورية. « القرعة. نعم »، قال أويس

أوسنجان، فحدَّجه أردهان ببصرٍ ملؤه استخفاف لم يَجد الأعور منه منجىً إلاَّ بالنهوض وهو يتعلَّل للجمع، غير المصغي إليه، بشؤونٍ تنتظره في الخان: «حَمَلةُ الأكفان يحملون بنادقَ، هذه السنة. هم عجولون»، وانسلَّ طائراً في خفق عباءته ذات الحاشية المقصَّبة بسلكٍ طريٍّ مطليٍّ بالزئبق الخُلَّب. عَبَر حقلَ الحصى في حديقة زانا، وانضمَّ إلى سرب السنونو خارجاً.

لم يعجب زانا أن يُهمَلَ اقتراحُها حين وجدت زوجَها منصرفاً إلى الضيوف السبعة كأنما يحثهم، من جديد، على إغاثته في تدبير شفاعةٍ للرقم الذي يَنْشرخ إذا بلغتهُ القسمةُ. رقم طريٌّ، رَخْصٌ، حَييٌّ، خجول، فيه لوعةٌ إذا هُيِّجَ، وإجهاشٌ إذا انْتُهِرَ، وإغماءٌ إذا قصَدَهُ العقلُ بالغواية، لأنه منذورٌ-من مبتدأ الخيال في ترتيبه رقماً-للمنزلة الأبدية في حساب الوجود: حَمَلهُ اللهُ بآلة متاعه إلى كمين العرش، بعدما فتَّقَ السديمَ عن الوجود كالبندق، ونثرَ طَلْعَ شجرة الحِجاب الأزلية فهرع بُستانيو النُّور إلى حدائق الأفلاك.

«هاتي حجر النشادر، يا ديدا»، قالت زانا خاتون وهي تحسم، بصاعقة الذهب في إبرام الميثاق لحضورها، استغاثةَ أردهان بتلبيته في أمر الرقم: «إنه في صندوق الزبيب، يا ديدا»، فنهضت المرأة التي تجاورها. نهضت العيون مع السواد الذي استقام فارعاً تحت العباءة القرغيزية الحمراء المطرَّزة الأكمام الواسعة بأطواق من صور الجياد، متتابعة في نسق كسُبَّحةٍ، وقد تعمَّدت أن تَردَّ خمارها على فمها الرقيق بعد أن أزاحته قليلاً ليلْحظ الشاخصون إليها أن شفتيها ليستا صناعةً من عِرْق أُمَم حَام. هي سوداء ممهورة الدم بختم الأب الأول قبل أن تتفرَّع من لونه المختار مسالك الألوان التي يرتاب فيها الوجودُ الناطق: السود، والصُّفر، لا نبوَّةَ فيهم. هذا ما تقوله مُعْضلةُ تقسيم الإرث الإلهي على تاريخ الأعراق. لكن ديدا صنفٌ من مجابهات الحيرة في انتساب اللون إلى يقين: ذلك ما يبدو واضحاً في مرآة جلدها الأسود: صورة البياض. ولَّما غابت عن الأعين في منعطف من الأروقة، عادت العقول إلى استقراء المعنى في القرعة بالحجر النشادر، ذي المعدن المُخْتَلف في مقامه، وطبعه، وخيال أبخرته الصلبة غير المرئية. وأفضل نوعه-يُقال-في خُراسان: أبيضُ لا قلق فيه، يجذب الهواءَ المُحتبس تحت مسام الجسد إذا مُسِّد به، ويجعل الرقمَ الخفيَّ ظاهراً على سطح ورق عرائش العنب بتبخيرها بماءٍ ذُوِّبَ فيه: لكل ورقة قُفْلٌ خيالٌ في مسيل نُسْغها، استودعتْه النشأة صورَة رقم من أرقام الحساب الموكَّلةِ بمقدار من الوقت حاصلُ حسابها، معاً، هو الأمدُ المقدورُ-بلا زيادة أو نقصان-بين ساعة نَفْخ الله في صلصال آدم والنفير من بوق إسرافيل إيذاناً بالقيامة. حجرُ النشادر يجذب الرقمَ إلى ظاهر عِلْمه؛ حجرٌ منذور للظاهر، فيه كمالُ التعيين. وقد دأبت زانا خاتون-التي تحفظ في القُفَف طبقات من ورق العرائش المُملَّح، المُنتقى غضّاً في مطالع الصيف كي يكون مؤنة للحشو بأدمغة الخراف المتبّلة بجوز الطِّيْب، المعجونة بمقادير من بزر الصنوبر والبندق الهندي، ولُبِّ الحرشوف البريِّ بعد قلْيه-أن تُبخِّر الورقَ في القرعة بين نساء أردهان الثماني الأخريات، حتى يستقرَّ الرقمُ المفرد على واحدة منهن تفوز بليلةٍ مع البعل هي مِلْكُ زانا في تعاقب الليالي على مخادعهنَّ.

كلُّ ليلة عاشرة يصرف أردهان، بحساب التناوب، حُلْمَ جسده تصريفاً عادلاً في سرير واحدة من نسائه. يقلِّبها بأصابع شهوته كورقة الكتاب، أو لا يُقلِّبها، أمرٌ آخر. لكنه يعطيها مفتاحَ أنفاسه

تفتح به مسامَرَةً في أحوال العلوم الناضجة على نار المطارحات الصغرى في الدلال السماويِّ ، والمساءلات المحبوكة من الفضول الأرضيِّ . زانا، كبرى النساء الموسومةُ بعقد ثالث في مسيرة عمرها، تخفَّفَتْ من طلبِ قِسمتها المحفوظة شَرْعاً في أن ترعى بخراف قلبها وقلب أردهان حشائشَ المخدع، بعد زواجه المتلاحق بالأبكار النواهد في حُمَّى غزوات مَنِيِّه تنكيلاً بالعماء العاقر من غير جدوى: لا أشكالَ ظاهَرَتْهُ كي تنقلب الخسارةُ العدميةُ إلى فوز الوجود بصورٍ ترتدي لأردهان بشارةً الذُّرِّية. المرأةُ الطويلة، سليلةُ أرضِ الكمثرى في ولاية أخلاط الحائزةِ ، من الغيب النَّقَّاش، شرفَ مُسَاكنةِ البُزاة البِيْض أدغالَ ها، آثرت نقلَ الليل المحسوب في متاعِ شراكتها إلى واحدة من الأُخريات، حيناً بعد آخر، بإدْراج القُرعة في اقتدار النَّقْل من سلطان فَرْج إلى سلطان فَرْج: « هَيُّوا، يا أقلام الله. سأعطي واحدةً حصَّةَ الجنِّ من السِّحر ». هكذا تناديهن ليجتمعن بورق العرائش أمام نجار الحجر الخُراساني. هُنَّ أقلامُ الله. زانا وسَمَتهنَّ بصفات القلم منذ تخيَّر لهنَّ أردهانُ معلِّماً من سراي سِيْرتْ ، أنفق نِشارةَ سبع وسبعين شجرة عولجتْ وَرَقاً لتصحيح شجرات الأنساب في الإقليم الغُباريِّ التائه، كي يتقدَّم بنسائه إلى مجاهل الرَّهبة في ممالك الحروف السُّفلى: حروف عربية عليها أستار من شهوات الخلائق إلى البوح للثور الأزليِّ كيوثاءَ ؛ لكن أروقة تلك الحروف، ما يلي الأستار، فراغاتٌ زبرجدٌ من ضلال المعنى المُنْشِد بصوتٍ هو خصِّيصةُ النداء الكرديِّ في جنبات المعلوم المجهول. نساء أردهان لم يتحكمن في رسم القَلَق شكلاً على المتن الحامل لصور حروفٍ تتقلّب على فُرُشِها ـ فُرُشِ الفردوس المنكوب بعقل الحيلة أبداً . بضعة أشهر، قبل وصول الضيوف السبعة، من التمرين على اتخاذ الحروف نَفَساً ، انتهت بهرب المُعلِّم، بعد انقلاب الدروس في الإيوان، تحت أعين الغزالات المسحورة بكمال أعماقها ـ أعماق زُحَل، إلى انتقاصٍ من هيبة الرَّجاءِ المستور في المعنى المستور. كُنَّ يتفكَّهن كلَّما انتقلن إلى خيالَ حرف مرسوم بالقَدَر الذي يفصح به الحرفُ عن غياب إرادته في هبوب البطش العذب عليه من خيالهنَّ المُبذِّر. حَلَجْنَ الصوتَ المنسوب إلى جوهره الناطق حَلْجاً بالنَّبر المُجدِّف من مساكب ألسنتهنَّ الناطقة، وأسرفن في إقران رسْمِه شكلاً بالمآثر القوية لآلات الحواس: خُصى، وفُروج، وأحاليل، يدوِّن اليقينُ بها قدَرَ الممكنات المسحورة. كنَّ يرسمن الحروفَ على قماش ذي خروم، أبيضَ ، مشدود في طاراتٍ خشبٍ ، بالخيوط والإبر. حروفٌ كي لا تُمحى بعد حفرها في خيال الظاهر الكُلِّيِّ ـ هكذا أوصى أردهانُ المعلمَ عوضاً عن اتخاذ ألواح الخزف الأزرق، وأقلام الحَكِ. وقد استبدَّ بهنَّ عِلْمُ مجاورة المعقول في المتاهات المحسوسة لفردوس الكتابة، فحوَّلن القماشَ المشدود في الطارات إلى دفوف ينقرن عليها، كلَّما أنجزن تدبير الإغواء لحرف مّا، أغانيَ ممزَّقة الأذيال من انجرارها على حَجَرِ الأعراس الخشن : « أهذا فحلٌ أم طفل، يا ذات الجديلتين المبلَّلتين بلسان الماء في البئر؟.

أغلقي الوسادةَ عليه ؛

انْفُشيْهِ كصوف اللحاف ؛

أعيديه إلى سُمَّار ليلته مُتْعَباً ».

بقيت الحروف مرسومة على قماش الطارات بثقلِ النَّدم على خروج الكون من سكون الجوهر إلى حركة العَرض وصَخَبه، أما « أقلام الله » فقد تحرَّرن من تضليل الأزل بالتمويه عليه بالأشكالِ الحروف،

التي هي صوتٌ في الأصل انحدر به اليأسُ إلى مرتبة التدوين. عُدْنَ أقلاماً ، حقّاً؛ أقلاماً هي عِلْمُ الإشارات المكنونة في خزائن الحفْ ظ، قبل نقل الوجود.

المتعثِّر الحظِّ نَسْخاً ـ بحبر الباطل الشفيع ـ عن صورة أبيه الإمكان المتعثِّر الحظِّ ، المولود من خيال العدم الجَدِّ في برهةٍ من مشاجراته مع الخلود. لكن «أقلام الله»، المحفوظة أرحامهنَّ لصور الخَلْق المؤيَّدة بالأسماءِ اللانهائية، مِثْلُهنَّ مِثْلُ الكشوف المدوَّنة على اللوحِ العارف، كنَّ يستسلمن للمجهولِ الصغير، ربيبِ القرعة بحجر النشادر، بين يدي زانا وهي توزع ورقَ عرائش العنب عليهن، اثنتين لكل امرأتين، وتبخِّرهما ـ من ثم ـ لتقرأ كثافات الأرقام، والتي تحوز الرقمَ المفرد تمضي في الرهان على الجواد اللامرئيِّ في حقل الليل، حتى تستقرَّ النهايةُ ، بباشِقها القنَّاص، على أكَمَة اليقين ذي المجادلات الأنثوية.

من عَلَّم زانا قراءة الرقم حتى لو لم يفتح الرقم مغاليقَه لبخار النشادر؟ أهلُ أَخْلاطَ ـ ولايةِ أقواس قزح المُهَشَّمةِ على قباب شجر الكمثرى، توارثوا القرعة بحجر النشادر عن أهل قلعة مُوْش، المشرفة على حقول الدخان، المتصاعد، أبداً ، من بين عرائش العنب هناك، حيث ينمو الشجر قَزْماً عامين ثم يموت. يُزْرع ثانيةً لينمو عامين ثم يموت. غير أنه يحمل ورقاً ، في عامه الثاني، صغيراً جداً ، بأربعة فصوص مُسنَّنة، فضية اللون، يغزوه عَلَقٌ أبيض يتناسل في شرانق العنكبوت الأبيض، الذي يطلي مسامَّ النبات بصمغ فيختنق النباتُ. وقد استنزل علماءُ الخصائص المُعَذَّبةِ بامتحان الفناءِ العادل تراكيبَ الدَّفْع والمَنْع في تصانيف العَقْل النباتي، الموضوعة بعد اختبارٍ في حقول البلاءِ بأرض سومر المفقودة، فتحَصَّل لهم كيموسٌ من بخار النشادر يسقط منه العَلَق ميتاً . لكن الورق، بعد تبخيره، استظهرَ عروقاً نافرةً على سطحه لها أشكالُ أرقامٍ مفردةٍ ومزدوجة مما درج على رسمها المجهولون في قيافة الحروف الكلدانية، بحسب بعض الألواح الباقية في آثار الممالك التائهة حتى عودتها الألفيَّةِ إلى مجرة الفَلَك الأصغر، على تخوم الإهليلج المائي المحيط بجرْمِ الأرض الظاهرِ والخفيِّ معاً.

فُكَّ اللُّغزُ ، واستُصدرَ العلمُ بهمَّة العقل المُنْشىءِ لسطور الله الممحوَّة بحيلة الوجود الداهية ـ كَنَّاسِ القُمامة عن باب المجهول: الأرقام النافرةُ عروقاً من باطن النُّسْغ هي مجزوءات من الرقم الكليِّ ، الذي قدَّرت الحقيقة أنه يكفيها لتبقى محتفظةً برباطة جأشها أمام استنطاق العَدَم المُمْتَحِن، من أوَّل البزوغ النورانيِّ للشكِّ على قلب آدم حتى انقراض نسله بالنفير الصاعق من بوق ملاكِ القيامة.

هُدِمت أخلاط مراراً ، وبقيت قلعة موش قابضةً على الطلَّسم المُفْتَضَح. آباء أويس أُوْسنجان، المشمولون بقرابة إلى آباء زانا خاتون، أحصوا في إرث ألقابهم، المدوَّنة على كؤوس النحاس بأقلامٍ من أغصان التين المجوَّفة، ستاً وثلاثين عاصفة من عواصف الإمتحان المعذِّب قوَّضت أعمدةَ أخلاط: مزق سلاطين فارس نقوش سمائها المهجورة بأختام السحاب الناطق في ردِّهم السلاجقة إلى أرض الأخدود القَمَريِّ المتاخم لشرق طوروس. ثم مزَّق المغول بساتينها في ردِّهم سلاطينَ فارس إلى أخدود الشمس المموَّهة بأقنعة أُسُود الأكاسرة. حرثها الشاه طهماسب، وبعثرها السلطان سليمان جداراً جداراً. وما لم يقطِّعْه الآدميون بحراب الفتوح قطَّعه الزلزال ثلاثاً . لكنها عادت، مفتونة بإرث الخراب الساحر، إلى ترميم سطورها المقروءة على لوح المُمْكن بعد ظهور البُزاة البيض، طيورِ الملوك القناصين في سَرْمَدِ

المتاهات الأليفة، في نواحي دَغْ لمها، آتيةً من جبال أُ مم أرمينية. وإذا ذُكرتْ الأصولُ المُكرَّمة في أنساب أخلاط يُقسم أُوَ يس، الملتجئ أبداً إلى مَسنَدٍ تعزِّزُ به زانا حصادَهُ من بَرَاعات المُشْكِ ل، أن السيد الأكبر حسين أخلاطي، وارثَ كشوف الظاهر والباطن، القائم بشفاعة الحجاب العريق في الأسرار على علوم الجَفْرِ الجامع، تنبأ بولادته هُوَ قبل قرون، في الأرجح: «يكون من نسل بعض أحفاد أويسنجان، علاَّفِ الشِّ ياه على ضفاف الأنهار، جَسُوْرٌ أعورُ ، تأكل من يديه جهاتُ الله السَّبعُ كدجاجات البيت».

إنها تورية مثل راحة أويس التي يقرِّ بها من عينه اليسرى، القابضةِ على منازل المرئيِّ في فَلَكِ مصكوكات النُّ ور، وينفخ عليها ليجلوَ عن بلورة المعلوم الحَذر غمامةَ الحِيَل: «واضحٌ ما قاله سيد الأشراف حسين أخلاطي. أنا أمير الخان في ميدو ـ ملتقى أقاليم السماء من بحر الروم إلى بحر الخزر». هكذا سيضع الرجلُ ذو العين الواحدة خصائصَ المكاشفات بين قلوب القناصين في شعاب المستور وبين الغيب على سويةٍ واحدة في ميزان التأويل: «تنبأ الأخلاطي بخروج جنكيزخان من خمائر العدم الغاضب لاجماً كَيْدَ العمران في تمادي العمران بالنقوش البَطِرة على الحدود المشترعة من مجاراة الله في تلبيس الفراغ، والحيِّ ز، حُليّاً من كمالِ مكنونه . نعم، العُمران الفائضُ مروقٌ». وليس لأويس، على أية حال، تدبير مخارج للعقل من إسرافه في ترويح المُعْضِل. إنه يُجْهدُ الإشاراتِ الأزليةَ كي تنطق بالبراهين على انتسابه، بحصافة النبوءة، إلى برزخٍ لامست فيه كتفه كتفَ تيموجين بن يشوكي، سليل إقليم دولون بُلْدُ ق، الملقَّ ب بجنكيزخان. لقد كانا، معاً ، في الخلية ذاتها التي يشرف بها الغيبُ على كُتلته المرفوعة بعتَلَةِ العِلْ م الناظم إلى خيال حسين أخلاطي، الذي بنى قريبه محيي الدين أخلاطي مرصداً لهولاكو ببلدة مَرَ اغة، في ناحية من تبريز: حجر، ورصاص، وشمع، وكُنْدر. حجر غُمسَ في الرصاص الذائب حتى غدا في غلافٍ صفيحٍ ، وجُعِل ملاطهُ الكُنْدرُ ـ صمغُ النقاءِ الإغريقي، الحافظُ بزرةَ نسلٍ من الصنوبر أُخرجت منه بيد المواريث الجبلية. أما الشمع فكي لا تنفذ من الخَصَاص والأثلام أهويةٌ أو ماء أو صوت. مرصد في مَرَاغة هو عين هولاكو المُنتدبةُ على أعماق السلالات، غذاها محيي الدين ببصرٍ من علوم الهيئة يقلِّب الأَشكالَ كالوَدَع بين يديِّ الجماد الكاهن: الأمم صورٌ ، والأقاليم سبائك الغمام. غير أن قريبه حسين الأخلاطي سيواكب، ببصر النديم على مائدة الموت، من قبره ببرِّ مصر، جيوشَ هولاكو المرتثَّة تتقلَّب كالجريد اليابس في تراجعها من مساكب ألغاز الرسوم ـ صحراء الأهراماتِ المنازلِ إلى الغسق المحمول على مرصد مراغة: الأمم صورٌ ، والأقاليم سبائك الفراغ.

قطعاً ، لم تكن أخلاط سيرورةَ قِدَمٍ في مذاهب رواةٍ كأويس، المستنجد بشفاعة زانا خاتون في تأكيد روايته لولا أن أخلاط نَفَسٌ من أنفاس بدليس ـ إمارةِ أعماق الكرد في البستان المُمزَّق على تخوم الهاوية الكبرى: أطلسِ العبث ذي المدارين المرسومين بحبر الترك والفرس. الأزلُ المستلقي هناك، من تُ خمته، يَنْكتُ أسنانه بعيدان الشِّمَار. الأمراء الهاربون من عَدْر الأمراءِ ينكتون أسنانهم، في لحظات الجزع، بعيدان الشِّ مار: «حاملو الأكفان، الذين ينزلون الخانَ لَمْحاً ويغادرون، يحملون رسوم الطرق الخفية إلى بدليس»، يقول أردهان، وهو ينكت أسنانَ ه، التي لا أثر للطعام عليها بعدُ ،

بعود من عيدان الشِّمار. ضيوفه السبعة ينتظرون تدبير مخرجٍ للرقم من خُ لموة النفائس الأبدية، فيما زانا تنقر بأنامل يدها اليمنى على باطن خفِّ ها الأيسر، ذي الجلد الأصفر، فيهتز القرطُ الحَلَقةُ في خِنَّابة أنفها ـ القرطُ الإشارةُ من لسان الديمومة إلى نفير الحواس الصُّغرى. «فَلْنقُلْ ثلاثةٌ ، وثلاثة، وواحد»، ينفخ أردهان الكلمات محتشمةً في بلاغتها الرقيقة، فيتلقَّفها منه حاكم الطُّ عوم فرهاد، ابن مردان زنكنة فقيه المجازفات في مراتب الإنشاء اللغوي الكردي: «كل ثلاثة يرسمون شيخاً ـ تقدَّس سِرُّ هما، والسابع يتوكَّل بالحقائق».

نفذ السهم في مرآة الحيلة كالهواء فلم تنشدخ. تمتمت زانا «ها هو حجر النشادر، والوعاء، تحملها ديْدَ ا»، فصرف عنها النظرَ جابان زَرُوْ ، الشابُ المحتكم في علوم الرسم إلى المجادلات: «ما الحقائق، أيها الكريم؟»، قال سائلاً الطاهي جوازَ النُّقْ لة بين المعاني الرقيقة وأخواتها، فردَّ فرهاد: ـ البرزخ مثلاً.

«أي برزخ تعني؟»، ساءله دَسْتِيدَانْ دَاسَنْ ، الأربعيني ذو الوجه المراوغ في غُثْنونٍ حليقِ الشاربين.

«ما يتصل بالشكل وبالفراغ»، ردَّ حاكمُ المذاقات.

«اسمعوا»، قال جليسٌ في الإيوان من أهل «ميدو»، وأتبعَ الأمرَ الخجولَ بالألقاب العادلة على لسان المريد البسيط: «أيها المشمولون بالوَهْ ب العريق، ماذا لو تخيَّر واحد منكم رَسْمَ الجنة والجحيم، فيما يتوكل الآخرون، ثلاثةً ثلاثةً ، بأميرَيْ الأسرار عبد القادر الكيلاني، وبهاء الدين النقشبندي؟ أنتم نظرٌ نستطيع أن نرى به أحْكامَ الدرجات بين أجسادنا الدنيوية وأجسادنا الطيفية».

«ها.. إذاً »، تمتم حرَّ اث النقش أردهان، ابن قاضي الطهاة، وأضاف: «لديكم محرابٌ في عقولكم تُصلِّي فيه ملائكةُ الموازين، يا أحمد نشْ مي. أنتم أهل بدليس..»، قال منشرحَ اليدين يبسطُهما بخاتميه الذهبيين كأنما يدعو جليسَهُ إلى عناقٍ ، فانبرت زانا من كمين الحيلة التي ضاقت على نداءِ علومها: «ها هو حجر النشادر. أوقدي يا ديدا النارَ في فتيل موقد الزيت».

«يا أمَّ الغزالات، لقد أفتى سليل من عِرْ ق بدليس. لا نشادر، ولا ورق عنب»، قال أردهان.

ركعت ديدا السوداء قرب زانا، التي تدلى على صدرها قرص رقيق من حجر الماطليس الهندي ـ حجر الجدال الذي ينفر الجنُّ من الخوض فيه. تهامستا كأنما تبريان قلمَ الميثاق ضد الذَّكَرَ الجاحد. الأنثى زانا، المثقالُ الأخفُّ في مراتب الضرورات، المُخْتَلَقة بخيال النقصان في الفردوس الأول المحكوم بحلول المهجور في صِ فته المهجورة، عاينت وجه شريكتها الأنثى ديدا مليّاً تستنزل منه استخفافَ قلبها بحكم أردهان. نقرت بإصبعها على قرص الحجر فوق ثدييها نقرةَ الوعيد: «ما الجنة؟ ما الجحيم؟ هَلاَّ تخيَّ روا من يرسم لنا حارسة الغزالات جيهان، ابنة شاه جيهان، وَلِيَّة مرايا الأقاقيا؟»، قالت في همسٍ نازفٍ.

«أسمعُكِ »، ناداها أردهان ضاحكاً. «ضيوفنا يسمعون. هم حكّام الحُجُبِ ، وليسوا ممن ينسخون الجسومَ المعلومة. غزلانُك تستطيع أن تنتظر مرور النقَّاشين برسوم الحنَّاء».

«سمعتَ ناقصاً يا أبا الحمد والجود. ذكَرْتُ وليَّة الأقاقيا»، قالتِ المرصودةُ بحجر الماطليس، زانا.

«أنا أرسم الغزالات، يا سيد أردهان»، تكلَّم دَرْبَنْد كَ رمان، وهو يضيِّ ق بين جفني عينه اليسرى،

فالتمعت خواتمه الثلاثة المشمولة بنقوش المتاهة.

«عفوك، يا كريم العقل. أمُّ الغزالات تريد رسماً للوليّة جيهان أرابيكُمْ. لكنها رغبةٌ تؤجَّ ـل»، قال حرَّ اث النقش أردهان، ابن قاضي الطهاة. سمَّر بصرَ حواسِّه المجتمعة في سِلْكٍ من ماءِ المُمكن: «سيكون ألقاً من شفاعة خيالك لو نثرتَ في إقليم ميدو بزرةً من خيال الله ـ جنَّتَهُ وجحيمَهُ. سأدعو الأكابر في أنحاء بهبهان. وسِيْرتْ ، وبَ ايزيد، وزارا، وأورفه، كي يدحرجوا قلوبهم شاخصةً إلى متاع الميعاد».

هزَّ الستةُ الضيوفُ رؤوسهم تأييداً ، فارتسم في عيني دَرْبَند الأحمر البشرة جناحا القبول. أطبقت زانا يدها على حجر الماطليس : مُذْ رأت صورةً مهشمة الخطوط لجيهان أرابيكم، حاملة ختم أبي جدِّ ها تيمور كوركان لنك، على ظهر المرآة في بهو ستيرْكِيْ خاتون في موش، أدركت الشبه العالق في برزخ المنظورات بين جبينيهما المنخفضين، وفميهما. ثم أجْرَتْ بنفسها، طباقاً أبعدَ فطوَّقت خمارَ ها، على محيط الرأس، بأربعة أطواقٍ من الفلوس الذهب مصكوكةً برموزِ الخير ـ الحروفِ المُخَصبَة في حقول التوريات الأزلية. كانت الكرديات يتطوَّقْن باثنين على رؤوسهن فزادت زانا المقادير طوقين آخرين على سُنَّ ة التشريف في رسم جيهان ذات الخمار الأزرق، واقتنت نسخةً مهترئة من «مؤنس الأرواح» المنسوخ بخط النُسَّاخ الجوالين في قرى سفوح التاي.

جيهان أرابيكم أسلمتِ الدنيا إلى مشيئة التَّرْ ف، وانصرفت بكيان الخلاءِ في حقيقتها الممتلئة إلى التبتُّل للمعاني ـ اللهِ والشَّفافة. ابنة الأسلاف التي انسفحت لهم الأرضُ منبسطة كفَرْ ج البابون، جلست على حافة الجرْفِ المحيط بسيل الكَ مال، بين حقل صغير من زهور الأقاقيا الصفراء، وهي تُسطِّر بريشة من جناح الألباتروس خواصَّ البسائط الكليَّة ـ العزلةَ في مهبِّ النَّفْس من جهة السديم. زانا قدَّرتْ ، بتخمين قلبها لنبرة اللون في عصب الريشة، أنها من جناح الألباتروس، وفق وصف أسبغه الدهقان راوند لور على ريشته هو، التي يرقِّش بها البوابات العشر في سُور كتابه الأمين على مراتب الصوت «فاكهة الرقم» : «الألباتروس، وليس الخُطَّ اف، أول طائر آنس آدم في عزلته. طائرٌ بقيدٍ في قدميه، يحوِّم ولا يحط. لا قصاص في المعنى : الجناحان أبديان والقيد أبديٌّ ، ولهما كرامةُ الثقل الواحد. بريشة الألباتروس تُدوَّن عزلةُ آدم، وأنا سأحيلُ عزلتَهُ إلى صوتٍ ». جيهان أرابيكم، بدورها، تدوِّن ما يؤنس الروح المطوَّقة بقيد الباطن : الروح شبكة الظاهر التي يقتنص بها بسائطَ الأحوال الكُلية. الروح قلَمُ الظاهر وحبرُهُ. نداءُ القلم نداءُ التدوين. القلم الأول ـ قلمُ المشيئة الذي جرى على لوح الله بالعلوم منقولةً من خصائص الغيهب إلى خصائص المعلوم ـ دوَّن بحبر العماء نُقْلَةَ الظاهر من كمين العدم إلى الإنشاء الخالق، لأن الظاهر هو القِدَمُ محفوظاً في خزانة الباطن، فُرِّجَتْ عنه المغاليقُ فاسْتَحْدَثَ الموازينَ : لا حساب بلا الظاهر. لا امتحان بلا الظاهر. لا نقائض بلا الظاهر. لا انجذاب للقيامة أن تقوم، مُسْتخلِصَةً من أوعية الفناءِ الكتيم المُغلقِ أبديةً من صور المخلوقات هابطةً درجَ النعيم إلى المحسوس النعيم؛ صاعدةً درجَ الشقاء إلى المحسوس الجحيم، ـ لا انجذابَ لها بلا عونٍ من انقلاب الخلاءِ الكُليِّ إلى ظاهرٍ يشمل بزوغَ الله، نفسِ ه، على كونِ القضاءِ الأخير، الذي لا استحالة فيه، مُنْتحِلاً كمالَ الظاهر المعدود من حقائق اللانهايات. جيهان أرابيكم دوَّنت «مؤنس الأرواح»

بشفاعة الظاهر في حقل الأقاقيا ـ زهرةِ الخُلوة الذهبية في شريعة اللون : امرأةٌ قلمٌ هي . وكل امرأةٍ قلمٍ حِبرُها رحمُها المنشِئ للزخارف التي يتمّم بها المطلق زينةَ الغايات النهائية، في اليوم الذي يُعفى فيه الخيرُ من تبرير الخيار كعصيانٍ يحقّقُ الآدميُّ به للخير صفتَه، ويُعفى الشرُّ من تبرير الجَبْر كعصيانٍ تتحقَّقُ به صفةُ الشرِّ. زانا خاتون أوْكلتْ ، بشفاعة الوَلِيَّةِ سيدةِ الأقاقيا، إلى نساء أردهان ثوابَ القلم ـ هُنَّ المنتظرات حبرَ أرحامهنَّ التي يتردَّد فيها صدى النَّرْد مقذوفاً بيد الغمام الحَجَّاب . « أقلام الله » . صورٌ تتشاكل . فلماذا لم يُؤْذَنْ لها أن تستميل رسولاً من رُسُل اللون السبعة، في فسطاط بيتها، كي يستعيد لها كمالَ الظاهر في رَسْمٍ يستنطق به اللونُ علومَ القلم الأول؟؛ رسولاً يفتح لها ممرَّ الأحوال الخرساء كي تمشي زانا، بقدمين من اللون، إلى حقل الأقاقيا، وتقلِّب بيديها المرصودتين بإشارات الحناء كلَّ صفحة تنتهي جيهان من تدوينها : كتاب لن تقرأه قطُّ ، لكنها ستطبع على ورقاته البيضاء، قبْل التدوين عليها، واحدةً واحدةً ، قُبْلَةَ الصَّفْح عن المشيئة التي أنجزتِ الوجودَ نازفاً .

« الجنة أوّلاً ، أم الجحيم؟ »، قال أردهان بلسان المُسْتَمْزِج المَرِح، ملقياً بصرَ حواسِّه على دربند كرمان، ورفع يده معترضاً قبل أن ينطق ذو البشرة المحتقنة بلون الغايات : « ربما علينا إجراءُ القرعة ببخار النشادر » .

« سأتدبَّر ثقةَ اللون أولاً . على خيالي أن يقدِّم عروضَه المُحْتَمَلة، اللونُ يختارُ ويوجِّه »، قال دربند متلمساً بأصابع يده اليمنى خواتمَ يده اليسرى الثلاثة ـ خواتمَ الدورة السرمدية .

« ثقة اللون؟ »، تمتم حاكم المذاقات فرهاد كأنما عثر على مصكوكٍ من علوم المراتب . « أنا، بدوري، أتدبَّر ثقةَ الأبازير التوابل . هي خيالي . لطالما أجهدتُ بصرَ لساني في قراءة ذلك السطر الممحوِّ ، وها أنت تكتبه لعقلي، يا سيد دربند، بريشة من جناح ديك العرش » .

تدخَّل حرَّاث النقش أردهان مدحرجاً بندقَ المسألة الذهبية : « بيانُ الثقة من خصائص المحظور . الكتمان هو التحديد » .

تبادل الجلوسُ نظرَ التخمين . الثقة مسألة لا يحوجُها تدبيرُ بيانٍ أو كتمان . الثقة ثقة . نطق الضيف جُوْدي غُوْرْغيْن، ذو الخاتمَيْنِ المشمولين بنقش المرح ـ أهداب بينها ريش : « أبازيرُ توابلُ ، ولونٌ ، وحذر، وشكوك . أين يمضي الخيال بمتاعه؟ الثقة تُرى، يا سيد أردهان . الثقة خطوط من حبر دوابِّ البحر » .

« بمن لا تثق، عادة، يا سيد دربند؟ »، ساءله سَلْمَاسي شَاهْجَانْ ، الضيفُ الشريك في تدبير النجاة للأشكال بمعونة اللون .

« لا أثق بمن لا يكذب »، ردَّ الأحمر البشرة، وهو يضع يده اليسرى على صِداره المعقود بسيُور من ألياف نخل القِنَّب .

« أنا، نفسي، لا أثق بمن لا يخطئ »، قال فرهاد، من غير أن يُستشار في تصنيف الماهيات الصغرى، فانبرى أردهان مقتسماً من خزانة النقائض الكسولة بريقَ التوريات : « اسْأَلْني يا سيد سلماسي . أنا لا أثق بمن لا يقلق » .

تدحرج صوتٌ خافت على زرابيات الفسطاط . انفلق القِشْرُ عن فُسْتُقَةِ النَّبرة الملمومةِ كتويج

البابونج: «لا أثق بمن لا يثرير»، قالت المرأة السوداء، المنبثقةُ من جِرْم الفَراغ المسكون بعَطَالته المسكونة. رنَّ درهمُ القِدَم في خَزانةِ المتعيِّنات ـ العقلِ المعدود آلةً، فضحك أردهان، ضحك الطاهي. نشرت القهقهة وَبَرَها المدغدغ في الحناجر. تماوجَ الإيوان.

«حَضَر إبليس»، قالت زانا خاتون وهي تضع راحتها، جانبياً، على فخذ ديدا تواسيها. همدت القهقهة. اعتُصِرَتِ الإشاراتُ المُلْهِمةُ، وتواشجت النقائض بشفَافةِ الخيال الأليف. حكَّت الأسئلةُ خطمَها بمخلب التلميح المُخادع: «نثق. لا نثق. نثق. لا نثق. المسألة مقادير. نثق إذا كانت الحيلة مُحْكَمَةً، والقَلَموتُ مَبْريّاً بشفرة الإقتدار»، قال كالِدَي بخْتريان، سابع الضيوف، المتوسِّدُ سيرورةَ اللون في الأريكة الزرقاء.

«ما القلموت؟»، تمتم جليس من جلساء أردهان. أصغت الأسماعُ إلى أثر اللفظ المكنون.

«هو أصل القلم. نحن نستعير لخيالِ التدوين لفظاً عربياً. نعرف القلم، ونسميه القلم بالكردية. حقُّ الله محفوظ نطْقاً عند أمم الإيمانِ باللوح؛ واللفظُ الجامع لوجاهة التأكيد يُؤخذ من فم الوحي بلسانه. نحن نأخذه كغيرنا حتى لو كنا نملك فَضْلَ المثول به في الألسن. لكن القلموت حاصلُ خيال الإغريق في ابتداع الرسم الناطق، المتجسِّم، لآلة التدوين»، قال كالدي، الذي اهتزت قلادةُ جلد الوَشَق على صدره.

«أسبق الإغريقُ اللهَ؟»، ساءله جليسٌ مصعوق في متاهة المعنى.

«لا، قطعاً. إنما، في الأرجح، كانوا يسترقون السمعَ على أسماء آلاته. الإغريق لصوص آلات الآلهة»، ردَّ كالدي، الذي استنطقَ اللونَ في ثلاثمائة رسمٍ من أُمَّهات رسوم الطاووس، حتى بات بداهةً أن اللون يسرد سيرةَ اللون بين يديه.

رفرفت سنونوةٌ فوق الجمع الجالس. «أُقْسِم بالشمس أن هذا الطير ألقى عليهم خرزاً»، قالت ديدا السوداء لزانا. تقدم غزالٌ مجتازاً برزخَ حديقة الحصى، فنهض حاكم المذاقات فرهاد الطاهي:

ـ اعذروني. سأستقصي المؤامرات.

«لا مؤامرة تُحاك إلا في مطبخك»، قال أردهان. نَقَّلَ بصرَ فطرتِهِ ـ فطرةِ النقش المشروخ في الإيوان، من الغزال المقترب في رفاهةِ خياله الأزليِّ حتى البوابة التي خرج منها الطاهي مستقصياً مراتب النار تحت أوعية اللحم، حيث يهيئ الماءُ، في غليانه المُسْكِر، شرارةَ الطُّعوم المُمْتحنةِ، ويبدِّلُ التابلُ من خصائص المشمومات بجسارة علومه الأبدية. «أسمعُ الطعامَ مستبشِراً»، تمتم حرَّاث النقش، فانفتقت حوصلةُ الصوتِ التميمةِ في نبرةِ الأنثى: «بل نسمع الشيطان يَبيْض»، قالت زانا.

نقر الغيبُ بسبَّابته المرجانية على غشاء الفَلَك، فتهيَّأ ديكُ العَرْش للصياح، إيذاناً بنقل النهار ميزانه إلى ردهة العصر. تكلَّم زغروس غوني المطوَّق المعصمين بسوارْين جلْدٍ فيهما تطريز يشاكل غصونَ السَّدْر: «سمعت أن الشيخ شريف خان البدليسي اقتنى واحدة من بيض الشيطان، حملها إليه، في ولايته، بدوٌ من صحراء قره قُوْمْ، فجعلها في صحنٍ حجرٍ مطوَّق بكُراتٍ كالجوز يسمونها فُسَاءَ الذئب».

«الشيطان يبيض، إذاً!!!»، تمتم جليسٌ أخذتْهُ رِعْدَةُ الطبائع.

« أَفَقَستْ تلك البيضة، أمْ ماذا؟ »، تساءل جليس آخر.

« مكتوب على قِشرها ثمانمائة بيت من شِعر الخصيان، جمعها للشيخ البدليسي، في ولايته، جوَّابون تجّارٌ في ممالك الأرُزِّ. شِعر بلغة أهل الصين على قِشْر البيض يُميت الرُّشَيم ـ بيضِ الدجاج أو بيض الشيطان »، قال زغروس. ضرب براحته على فخذه في البنطال الأناضوليِّ الواسع تحت جُبَّته : « البيضة تُجاور مخطوطَ الشيخ « شَرَفْنَامَهْ » في مرقده ببدليس. هكذا سمعت. بين البيضة والكتاب سراج مكتوب عليه « أطفأَ ها شريف خان هنا » بسهم يشير إلى البيضة، و « أشعَلَها شريف خان هنا » بسهم يشير إلى الكتاب. بيانٌ خليقٌ بشيخٍ مؤرِّخٍ ، وحاكم عادل »، قال زغروس.

« يا سيد أحمد نشمي، لم تخبرنا بقصة البيضة، وأصلُكَ من بدليس »، قال أردهان، مُلقياً بصرَ كلماته على قلب الرجل الذي اقترح توكيلَ الرسامْينَ ، كلٍّ ثلاثة بشيخ من الوليِّيْنِ الكيلاني والنقشبندي، والسابع بأحوال الجنة والجحيم.

« هي هناك. لكنني أظنُّها بيضة حورية من نهر سيحون »، ردَّ الرجلُ مبتسماً.

ترقرقت جَلَبَةٌ من جهة أرض السرداب، تحت الأعمدة الأربعة المنتصبة في بهو الإيوان. العقلُ الجوَّالُ ـ عقلُ الصوت رتَّب مراقيَ إنشائه نبرةً نبرةً كسهام القنَّاص، قبل أن يظهر هيكلُ الآدميِّ ، الدهقان راوند لور، من مشيمة الأرض الرخام إلى الخلاءِ الرخام، متمايلاً في هبوب عمره عليه من شروخ الأحوال وفتوقها : « في أي عام نحن؟ »، تساءل مدمدماً بلسان الميثاق المُمزَّق الذي لم يحتمله النُّور.

« هَلاَّ أعَنَّاكَ ؟ »، قالت الفتيات الأربع ذوات الخُمُر الموشاة كالخُوَذ برقائقَ فضّةٍ ، وهرعن إليه بجلبة خلاخيلهن المرقومة بسطور من بيان الحقائق الخفية. صمتَ الشيخ الدِّهْقان. رفرف عليه قبسٌ من طالع المحظورِ العليم ـ فطرةِ النهاية، فهز ريشة الألباتروس التي حملها من مكمنه المرصود بشرائع البسيط الكليِّ. هزّها بيده اليسرى؛ هزَّ خيال الطير الرهين في طيرانه القَيْد. تأمَّل بشرارة العقل الجوَّال في عينيه المرتدّتين على سُلطان المرئيِّ ، فجلسَ ابنه، الذي ارتبك قليلاً ، وهمَّ بالنهوض كي يعرِّف ضيوفه إلى أبيه، لكن الشيخ، غير المسترشد بعصا العميان، استدار إلى ثغرة كمينه. تقرَّى العمود ذا التويجات المقتطفة من حدائق شعوب الغَمْر، ثم وجَّه الإرادة المحتقنة في الهواء، حول قدميه الواهنتين، إلى خصائص التيه فاستنبط بها غاياتٍ هي خطواته المحسوبةُ ، بتقدير من شرائع الأمل، كفايةً لا يلزمها مزيدٌ كي تنزل به من الدرج السفلي إلى سردابه الحالم بنُظُم المُشْكل. تمتم بصوت القيد في لسانه القيد : « هذا عام الرَّنين ».

صاح ديكُ العرش ـ الملاكُ ذو العُرْف الصلصالي من جنبات الغيب المجاور لأنقاض المدائن في « ميدو »، فردَّدتْ صياحَهُ ديَكَةٌ ساحةِ الخان. راوند لور، قاضي الطهاة، أكد مراراً للطاهي المقتسم معه تدابيرَ التصنيف، كلٌّ على جبهة من علوم الحِيَل، أن الصوتَ افتراضٌ ، لا غير، نقيس به الأشبار التي تفصل الوجود عن انقلابه على الله. الوجود العارضُ ـ بزرةُ العماء، التي أنْبتَها تَعَرُّقُ السكون هيبةً من كمال ذاته، استُحْدثَ بآلة الصوت. كلَّم اللهُ أزَلَهُ في فاصلٍ من ضرورات التدبير المجهول المعلوم فانفلقتْ جوزةُ الصوتِ عن ثمرتِه – الصلصالِ الحيِّ ومستلزماتِه: الفردوسِ الأولِ ، الشهواتِ الأولى،

المكيدة ، القصاص والثواب المتهدلين من جدالهما في الانتساب إلى عقل الذّكر وعقل الأنثى. الوجود العارضُ ، في تغاضي الكمال عن نقصانه، حقيقةً بعد أخرى، ابتدعَ للكليِّ سهوَهُ عن المراتب بعروضٍ هي حيرةُ الكليِّ ذاته في حسم المُنازلة الآسرة بين ابنيْه – الخيرِ المحتوم المُشْكل والشر المحتوم المُشْكل: كلاهما يُريه انتساب الحقائق إلى مشيئته هو. لكنهما يستدرجان نَفْسيهما إلى صُلْح لا يُسْتَطْلَع: الخيرُ يكمِّم مشاغلَه بلثام الشرِّ ، والشرُّ يُكمِّ م مشاغله بلثام الخير. هكذا، يغدو الوجودُ أزلَ الأبد. والوجود صوتُ البوقُ ، الذي اقتطعه إسرافيل من شِعْبَةٍ نحاسٍ في قرن الثور كيوثاء، سيؤكد انتسابَ القيامةِ وبناتِها الفردوسِ والجحيمِ والبرزخِ إلى بصر الحواس – خاصَّةِ الوجودِ الصوتِ. سينعم الصوتُ بخلوده على مرآى من العماءِ العُطالة المُنتحِبِ على جبهة السديمِ المفقودِ – فردوسِ اللامُدْرَكِ اللاَّخيال.

لا يعرف راوندو لور، حقّاً ، إن كان تقديرُهُ كَوْنَ الصوت افتراضاً يجعل الخلودَ افتراضاً. لم يتأمَّل عقلُ الأحوال فيه خصائصَ الغَرَضِ الجوهريِّ؛ لم يقلِّب درهمَ المتاهة بين يديه ليتقرى تاريخ تداوله مصكوكاً في أسواق اليقين؛ معدناً أحمرَ نفرتْ فيه النقوشُ أباريقَ وسحاباً. لقد جلس الرجل على باب شيخوخته، باسطاً أمام بصره المنحسر عن رمال المرئيِّ صحائفَ يدوِّ ن عليها، بخطوطٍ ممزَّقةٍ من لغة أهل زوزان، فجرَ خياله المنتفض في براثن الغسق: «فاكهة الرقم».

لا يتَّ صل الإسم الجامع لفكرته الشقية، ومذاهبها، بالمعنى المتوطِّد لبحثه الشقيِّ في أحوال الصوت. «الصوت ليس رقماً ، وليس للرقم فاكهة»، ذلك ما حاول حاكمُ المذاقات فرهاد الطاهي أن يفاتحه فيه بكلمات الحياءِ المغسولة، كلما دخل السردابَ – العقلَ ا لمتجاسترَ أن يكون حجراً وصدىً ، لكن الدهقان يطوِّق علومَ الطاهي المتَّصلةَ الأسباب بعناد الخاسرِ القويِّ : «الصمت ماضي الله، والصوت آتي الله. الصمتُ هو القِدَ م، والصوت هو المُحْدَثَ. اسمعني يا فرهاد. الموت عودة إلى القِدَ م، تتبعه القيامةُ وهي الوعد الأبديُّ بالتسليم للصوت سرمداً . لكل شيء، في الخاتمة، حركة لن تنقطع. حركة بلا نهاية، صوتُ ختام: البشر يتخاطبون في مقاصيرهم، هناك؛ يلهثون متعةً. خريرُ سواقٍ في الفردوس المُ طلق، زفير لهب في الجحيم المطلقة. ماذا ترى يا فرهاد؟ الصوتُ المُحْدَثُ يغدو قِدَماً. أم ماذا؟ يغدو القِدَم مُحْدَثاً؟. أخبْرني ماذا ترى يا فرهاد».

لا تستطلع توابلُ الطاهي مرابطَ الإشارات المتجادلة على ألْسِنة الأحياء المغدورين. ليكُنِ الصوتُ ما يكون. لِيَكُن القِدَم والمُحْدَ ث ما يكونان. لحظةَ استلَّ جسدُ الشيخ إلى صَدَفة السرداب عاد الطاهي أكمل إرشادَ النار، تحت القدور الثلاث، إلى نبوَّ ة الرماد الموقوتة، وعاد إلى الإيوان. سيكون في وسع الضيوف السبعة، وجلساء أردهان، أن يستقصوا مغاليقَ الهبات القدسية بسراجِ الذوقِ القدسيِّ – ذوقِ الإغواءِ. أسَرَّ اللهبُ إلى القُدور سطوراً من شرائع حظوظه فَرَعتْها القدورُ حفظاً بعونِ الأبازيرِ التوابلِ الساهرة على خصائص التوليد والنَّقل. كُشِفتِ الأغطيةُ الخزفية ففوَّض العقلُ المشمومُ لسانَ الحواس بالتصريح عن ولايته. تسلّم فرهاد المقاليد: «دَرْدِيْ وَا» نادى ابنتَه – الملاكَ المرفرفَ في القفطان الأسود فوق السروال المخمل. هبّ ت إليه الفتاة ذات الجديلتين الذهبيتين، المتماديتين تسكُّعاً على كتفيها من تحت الخمار المرصوص برقائق الفضة. «قولي لإخوتك أن يرفعوا القدور عن النار»، قال حاكمُ المذاقات، فتطاير الريشُ عن لسان دردي وَا وهي تبذِّر الحروفَ ناقصةً ، مفهومةً ، أمام أسماع

الشبّ ان السبعة الحاسري الرؤوس. قضم كل واحد قضمة من التين المحشو بالجوز، وانحنوا على مقابض القدور يرفعونها عن أفواه المواقد الحجرية. رجع الطاهي إلى الإيوان عبر الممشى الذي يصل الخان بالدار. قرأ لأردهانَ ، صامتاً ، في اقترابه من الأرائك، أحوالَ الطهو الجليلةِ ، فتلقَّفه حرَّاثُ النقشِ صارخاً في مرح المُقْتَدر : «هلاَّ مددتم سماطاً هنا، قرب حديقة زانا خاتون، يا فرهاد؟ أريد أن أترك أثراً من نداءِ طَهوك في خيال السنونو»، مشيراً إلى الأعشاش في قبّة السماء الحجريّة، حيث أَوَت الطيور باكراً ، في عصر الخريف الذي لا يتفق مع طباعها، إلى منازلها المرصوصة الغُثاءِ بكراتِ الطين. «أين أويس؟» قال ثانيةً. فتح ذراعيه يكمل بهما إشارات لسانه : «سندلُّكم، يا ضيوف هذا البيت، على مهاجعكم وَمَرافقِ أعمالكم المنتظرة. كلُّ متاعٍ سينزلُ منزلته قرب أيديكم. بعد ذلك نخْلُد، هادئيْنَ ، إلى مباحثنا في أسرار الفقيه في مواعظ التابل فرهاد، ابن الفقيه في النحو الفلكيِّ مردان زنكنه».

«بل هو فقيه في علوم الظاهر»، قال حاكم المذاقات.

«النحو، والظاهر، فتنتان. والفتنةُ برغوثُ العقل النائم»، قال أردهان.

«أتُهينُ البرغوثَ ؟»، تمتمت السوداءُ ديدا، المتلالئة الجبين من انعكاس طوق الرقائق الفضة على استدارة خمارها.

«لا تتركين حيواناً لا تجدين فيه كرامةَ المنفعةِ ، يا ديدا. ما كرامةُ البرغوث؟»، ساءلها أردهان.

«ثَقُلَ النومُ على نبيٍّ فأيقظه البرغوثُ إلى صلاة الفجر»، أكَّدت ديدا لأردهان بلسان التحصيل المكين. تأمَّلها حرَّاثُ النقش. أدار بصرَه إلى زنا خاتون : «أين حاكمُ أخلاط الممزَّقُ الراية، قريبكِ الرّاوية، مُحْصي شجرات الكمثرى في سهول موش، أويس أوسينجان بك؟»، قال وهو يغمزُها مداعباً. لم ينتظر أن تنطق إذ رأى دخانَ الآجُرِّ في عينيها. ضرب كفّاً بكفٍّ : «هيا ندلُّ الضيوفَ على بيدر صورهم المحفوظة في خزائن اللون»، قال ناهضاً ، فهرعت الفتيات الأربع إليه. رنَّت الرقائقُ الفضة على رؤوسهنَّ متناقرةً بمناقير الأختامِ النقوشِ ، وصَلْصَل وَدَعُ بحيرة وَانْ . «هذه الفتيات رياحين الحدائقِ المفقودةِ »، قال أردهان ممتدحاً وجودَهنَّ الغممَ لضيوفه فطارت قلوبهن امتناناً في البهو الشاسع. تقدَّمنَ الجَمْعَ مرفرفاتٍ يفتحن ثغراتٍ في حُجُب الفراغ المعقول، ويمسِّدن الخفيَّ كي يبسط للخطى من خلفهنَّ لَبُودَ العافية.

من الساحة الخلاء، المرصوصة بحجر أصفر صُفْرةً هو كتمانُه عبثَ اليقين، اتجه الجمعُ إلى القبة الصغيرة، الطينية، المضروبة على درج لا يُرى إذا لم يَصِر المرءُ إلى حلقة مدخله. «ستشمون أنفاسَ ثلاثة آلاف عام»، قال أردهان وهو يدعو ضيوفه إلى النزول خلف الفتيات، عبر سطورٍ في ناموس الظاهر إلى بياض الباطن. الأدراج اللولبية، الثلاث والأربعون، مسّت برخاءٍ ذيلها أرضَ البهو المترامي، في الأعماق. ستة عشر عموداً من رخام ذي أطواق زرقاء بعروقٍ ذهبٍ أسندت سماءَ القبو تحت حجارة الساحة الدائرية. نوافذ مثلثةُ الزجاج أضاءتْ ، من جنبات نهايات الأعمدة، الفراغَ الشاحب من طول بقائه فراغاً مقيَّداً بأسماء الربَّات المرتديات أجسادَ النمور المهشَّمة قليلاً ، في بروزها من المحاريب المجوَّفة في الجدران. «ملوك ميدو ذبحوا كاهناتهم هنا كلما خسروا حرباً »، قال أردهان.

« نحن أضفنا نوافذ إلى السقف، ومدخنةً إلى المداخن الثلاث، ومجريين للتهوئة مستورين، وهذه الفُسْقية أمام مدخل الحمَّام الكبير، خلف ستارة الخوص البيضاء تلك. الغرف الإحدى عشرة، التي حوت المدوَّناتِ على الجلود اللفائف، هي على حالها. اللفائف نفسها على حالها. أسرارُ حَنُوطٍ، وأسرار دفنٍ، وأنسابٍ، وصناعة تروس، وقِصَارةٍ، وتوليدِ فيروزج من خام الرمل، وخواص دماءِ الحيوان. صنعنا للغرف أبواباً من خشب الزان، كما ترون، بلا طَلاءٍ، لتمتصَّ الرطوبة فيتولَّد هواءٌ فيه فوحُ صِمْغ الكُنْدُر. وتلك هي جرار الرمل المجلوب من منابع الفرات والخابور. تَرَوْنَها على يمين الأدراج، هناك : خيالُ الماء. لا قبوَ يحيا بلا خيال من خيال الماء. في الجهة اليسرى من الأدراج جرار الرماد. الجرار الخضراء، تلك، جرار رماد »، قال أردهان، وطوَّق وجوهَ ضيوفه بفُحَّةٍ من أنفاس الفِلفل تشهَّاها في متاع الطهوِ الذي ينتظرهم قرب حديقة زانا. « رماد من بقايا آل ابراهيم »، تمتم حرَّاث النقش. ثمانية وثلاثون فرداً، بينهم امرأة وصَبيَّان، سُلِخت فروات رؤوسهم، وعُرضوا على سطح قلعة أرجيش للرياح القادمة من حقول الصَّاصَل. عطرٌ خفيف ولسْع كالكيِّ. الأيدي، غير المغلولة، لم تقدر على حماية عظام الجماجم العارية في المهبِّ المعتدل للريح المعتدلة. أقحاف بيضاء لوَّثتْها عروقُ دمٍ أبقاها السَّلْخُ من مهارة آلاته : « أعطُوهم طعاماً، وماءً »، قال الشاه طهماسب، بعد اجتياح القلعة ونزع الفروات عن رؤوس آل ابراهيم بن بدر، الأمير المسكون بطباع ثمرات السفرجل : فجاجة في الفم، وحلاوة في الأحشاء. نطقَ الأمير بكلماتِ التحصيل المحظور : « أن تلتحق بولاية بدليس ألويةُ الأقاليم الصغرى عن حولها. بدليس سَمَعُ الكرد وبصرُهم ». فكَّت الكلماتُ قيدَ التسكين عن عقل طهماسب الشاه. أخلى الهاجسُ الدمويُّ للهاجس الدمويِّ مقعد النظر في شؤون الأقاليم المحفوظة لخزائن الكرد. فحُسمت المناظراتُ الخفية : « سأجفِّف أقحافَ آل ابراهيم، وهم أحياء، كتجفيف التين. أعطوُهم طعاماً وماءً »، قال الشاه وهو يستعرض آل الرجل الذي نطقَ بكلمات التحصيل المحظور. بياضٌ كالقبَّعات فوق سمت الرؤوس ـ بياضُ العظام. أفواه مفتوحة بعد ارتداد الألم من الوجوه إلى الأكباد، وارتعاشاتٌ في الأكتاف كلَّما مسَّتِ الأقحافَ ريشةُ الهواء الصَّكاك.

لم يأكل أحد من آل ابراهيم طعامَه. لم يشرب أحد ماءً. أوصد الألمُ على نفسه خيالَ الإثم متراجعاً إلى حافة سور المرصد في أعالي القلعة، ورمى أختامه الى السطور الظاهرة من زهر الصَّاصل : بزفراتٍ خفيضةٍ كزفرات طائر الفُوق غادرت أرواح آل ابراهيم، الحاملةُ فوانيسَ المعادن، أجسادَ آل ابراهيم الحاملة فوانيس المُعْضلة الأزلية وجواهرها. أُحرقت الجثثُ بحريَّة النار، واعتُقِلَ الرمادُ في جُرْنٍ ضخم كأمثولة.

تنشَّق أردهان، باستعراضٍ من خيال شهواته، فروقَ الأسرار في اتحاد التوابل حين عاد بضيوفه إلى الإيوان. سُوِّيتْ لكل ضيفٍ غرفةٌ من غرف المدوَّنات بحروف الطمث الثالث لألفيَّات العمارة. رُكِنَ متاعُهم إلى جوار الفُرُش السميكة الممدَّة على حُصُرٍ من صناعة أهل هَمَذان ـ حُصُرِ النَّدى المحاطَةِ الخُوْصِ بقماشٍ أصفر وأخضر، وحُذِّروا من الطاووسين المحوِّمين حول الفُسفية المطعَّمُ مرمرُها بصنوف من الجُزَعِ الصقيل عليه حروف التقييد والحَصْر بلغة أهل « المنطق المُحايث » : « الطاووس مولود من خَبَل الزهر الذي تخاصم في الفردوس على مقادير اختصاصاته، قبل انتقال العِلْم إلى آدم بأسماء

الزَّهر. الطاووس تجديفٌ أوَّلُ على لسان النبات، إذا دخل الغُرَفَ حرَّض فيها اللونَ على المروق». هكذا سَكَبَ أردهان حكمة الشُّبهات المصكوكة في أقداح المُشَافَهات. ولَّما عاد بضيوفه إلى مطلع الإيوان، تحت تيجان الأعمدة، تنشَّق مرافعةَ التوابل ببصر الشمِّ وسَمَعِه ولمسه وذوقه: «أيحاصركم ما يحاصرني؟»، ساءل ضيوفه بلسان التشبيه المُسْتَغْلَف، فردَّ سلماسي شاهجان ذو القبعة النيسابورية: ـ نعم. يحاصرنا عَدْلُ المذاق.

أحاط الضيوفُ، وبعض خواصِّ أردهان من الجلساء، بالصحاف الثلاث جلوساً على زرابيات متقابلة على تُخْمٍ من حديقة زانا. بخارٌ بثمانين ضِلْعاً، وستِّ تَرْقوات كآذان الفِيلة، تمطَّى مهذَّباً وديعاً فوق الطعام الساخن: ألسنةُ نعاج مقشَّرةٌ، مفتوحة طولاً بالسكين لتُحشى بقضبان الهليون المُحمَّرة في دهن النيلوفر. أكارعُ في صمغها سُلِقت بماء فيه بصيلاتٌ من سيف الغراب ـ سوسنِ البرِّ الناضجة في الأغلفةِ اللِّيْفِ. أحشاء دقيقة، حَشْوُها الجُمَّار المفروم، وريحان الحَمَاحِم، وحَبُّ الدردار ـ لسان العصافير، والشحوم الغُدد مع غضاريف قصباتِ المريء المُقطَّع ناعماً. كروش خراف بالقمح والفستق، والزبيب الأصفر، والقراصيا، يزيِّنها العُصْفر ويمدُّها الدَّارْصيني بروحٍ من فوح مسالك الصين. طحالات عُلِّفت بِصفاق الحيوان وشويت، مع بزر الكَرفس والكمأ المجفَّف، في التنُّور. «سيغلي الماء الراكد في فِقَرِ ظهورنا، من الأعناق حتى العصاعص، هذه الليلة»، قال أردهان. ضحك ضيوفه ضحكاً خافتاً وهم يقطِّعون الأرواحَ الساخنةَ في الصحاف المستطيلة بأيديهم. تمادى حرَّاثُ النقش بإلهام من فَهْمِ ضيوفه للتورية: «ستكون أحلامنا على قدْر انبثاق الصور من الماء». أحلامٌ من صعود الشحم والدَّسم بمقادير الأبخرة الثقيلة إلى القلب ـ صانعِ طباعِ النقائض، حيث يستقدم الماءُ المنيُّ، من هناك حَمَلَةُ النواميس الرقيقة، الرافعين متاعَ الصور المكنونةِ إلى مَلَكات النوم العاقل. الصور ستعتقل الهيولى ـ إرثَ الله بآلاتها. الضيوف التقطوا التورية، فتمادى أردهان، وهو يختلس النظر الى حلقة النساء المحيطات بصحاف أخرى على مبعدةِ سبع أذرع، كأنما يطمئن إلى انصراف أسماعهنَّ عن سماطه إلى ابتكار الوسوسات الخفية بعضهن لبعض: «فرهاد من أهل القياس في أمور العدم»، قال بلسان المستحوذ على سَمَع المغاليق. «العارفون بالعدم ينجبون الصورَ من نكاح الأحوال»، تمتم حَذِراً. «التوابلُ الأبازيرُ أحوالٌ: الفلفل المطحون درايةُ الندم بانقضائه. الدارصيني فِسْقٌ من خصائص العفَّة. العُصْفر نَفَس القَدَر. القرفةُ عدلُ الثمرة في انتسابها إلى جَوْر الشجر. فرهاد يضرب المثاقيلَ أخماساً في أسداس على مرآى من بصر المذاقات المشمومة حتى تنعقد للطعوم حكمةُ الجِماع: صمغ الأكارع يضاعف الرَّهز. ألسنة النعاج تنفخ الكَمَرةَ. الأحشاء المحشوة تولِّد الدغدغةَ في الصَّفن. الكروش بمرق القمح سيلُ الله من ترائب الرجال إلى ترائب النساء: دفْقٌ من الثُّنْدُوَة إلى الثدي بلا وساطة من ملائكة العِلل. الرجل يقود المرأةَ إلى الحَبَل بصدره».

التمع الدَّسمُ الساحر على شفاه الرجال، وتكاسلت العيونُ من استحواذ عقل الماهيات، المطهوَّة في خمائرها، على بصر التأويل: كانوا يأكلون الحقائقَ مطحونةً بأضراس النعمة، ويرتشفون من الطاساتِ الخَزَفِ، المطوَّقةِ الحواف برسومٍ لذيل التنين ذي الزعانف، لبناً مخيْضاً رشح أصلُه إلى الضروع من فَرْث الضأن، الذي تغذى خيال طباعه بالنبات الغضيض، المرصود الجوهر كنَفْسٍ حالمةٍ بثمرات المعقول

الأزلي. لبنٌ مُرَطِّب يجادل الدسمَ بحياءِ النَّفْح العريق، فيستزيد الرجالُ من مداهماتهم على الصحاف.

« التوابل رهانٌ »، تمتم جودي غورغين. مسح على شاربيه فالتمع الخاتمان المصكوكان بشرع المَرَح.

« لا رهان إلاّ على الله »، قال جليسٌ من جلساء أردهان، في أدب.

« ماذا تقول في الرهان على الخيل؟ »، ساءله جليس آخر.

انبرى ثالثٌ بلسان التحصيل: « الخيل ريح. في علوم المتأدِّبين على الكمالات أن الخيل نسلٌ من ريح الجنوب ».

« ما الشرع في الرهان على الريح؟ »، تمتم سائل، فرد الطاهي فرهاد:

ـ لا شرع، ذمّاً أو حَمْداً، في الرهان عليها.

« إذا كانت الخيل من نسل الريح، فقد حبَّب اللهُ إلى ملائكته حضور سباقاتها »، قال جليس.

« من أين لك هذا التحصيل؟ »، ساءله جليسٌ آخر.

« ورد في الأحاديث النبوية أن... »، قال شخص تقطَّعت كلماته بدخول أويس مهرولاً يسبقه لسانه:

ـ يا سيد أردهان، ماذا نفعل بالرهينة؟

توقفت الأفواه عن المضغ، وانكمشت الأيدي.

« أية رهينة، يا أويس؟ »، تمتم أردهان بصوت أرهقته شرارةُ الطلَّسم.

« حاملو الأكفان يريدون أن يستودعوا الخانَ رهينةً جلبوه معهم من نواحي سِرْتْ »، قال أويس.

فغر فمُ حرَّاث النقش. تبلبل مذاقُ الفهم على لسان عقله. جال ببصره على وجوه الضيوف مستعيناً، فالفاهم مثله أنزلتهم الحيرةُ مقامَها الذهبيَّ. استنجدَ بكلماتِ الذهول الرقيقة: « ماذا؟ حَمَلة الأكفان... ماذا؟ من نحن لنحفظ رهائن في خاننا؟ »، تمتم أردهان فلم يسمعه أحد في الأرجح. قرفص أويس بعدما لفَّ العباءة على جذعه فبدا مقيَّداً. تخاصمت سنونوتان في سقسقةٍ صاخبة، ثم ارتدَّتا إلى عشيهما، في البرهة التي انتقلت الفتيات الأربع فيها إلى إشعال الفتائل في الأسرجة والفوانيس، بحلول المغيب رقيقاً، مُسَطِّرَ اللوح بأشعار الغيم. تمالك أردهان نَفَسَ يقينه: « يأخذون معهم رهائنهم إلى نواحي بدليس، عادةً، فلماذا يستودعوننا، اليوم، رهينةً؟. لا طاقة لنا على إثارة منازعاتٍ في أرض ميدو »، وأطرق برهةً. رفع بصره إلى أويس: « من أية ملّة هو الرهينة؟ »، فردَّ ذو العين الواحدة:

ـ لست أدري. ثيابه من ثياب أعيان السلاجقة.

غمغم أردهان من أعماقه المنكمشة بصوت يستقصي حيلة العلوم في شؤون المجابهات. حَمَلةُ الأكفان، الموسومون سَحَرَةً على البياض، بثيابهم البيضاء، وأكفانهم التي يحملونها على العواتق، أقلقوا مجامرَ أمراء الأنهار من كرمَنْشَاهْ حتى مَلاطِيَهْ. ظهروا فجاءةً غامضينَ حازمين في مبايعة الشرعِ الذي يوجبُ إمارةَ بدليس مقاماً للحقِّ المقدور نصيباً للكرد، مذ أفتى الشيخ نصرةُ الله بالُوْجَان، ذو العمامة المتَّصلةِ الشراريب بحصىً مثقوبٍ جُمِعَ من حواصل الطير ـ خيال القيد الجامعِ للضرورات، بأنَّ الوقت قد نضج على نار المُعضلة الدهرية، التي تستوجب سنَّ دستورٍ للظلِّ: « في هذا الفرع من

انفصال الزمن عن عِلَ ـل التشبيه، ستولد الإمارةُ الموعودة من عقل الماء في بحيرة وانْ. بدليسُ خميرة الظلِّ المنْجِ ـب، والكردُ شفاعةُ الناموس. فَليحَضُرِ الأئمة العارفون، ولْتحضُرِ غمامةُ الله». هكذا جرى روحُ القول في الأسباب، وتمَّ ـت البيعة للأكفان بمددٍ من الخفيِّ الظاهر.

كان حَمَلةُ الأكفان ينزلون الخانَ في «ميدو» على عجل، ويغادرون على عجل، ببنادقهم الملفوفة المواسير بالخِرق الصفراء ـ علاماتِ التوكيد علي مبايعة الموت. كلٌّ يحمل كفنه. الحقائق مُخْتَمِرة في القوارير المختومة بشمع النظُمِ الخالدة ـ نُظُمِ الممكنِ البرزخِ بين الله وكلماته. الخيرُ حاصلُ حسابٍ من الأعشار الصغيرة للأرقام، وحَمَلةُ الأكفان يحفظون، في عقولهم البرزخية، نواظمَ المسألة وحسابها المتصرِّفِ جداولَ من الرقمِ المُفْرَد ـ خِصِّيصةِ الخيال الذي لا يقبل القسمة الا على اللامدرك اللامعلوم. لقد خيروا الأبدية خياراً لا ثاني له: أن يكون إرثهم أو يكونوا إرثه، مهملين الإصغاء الى مرافعات الشرِّ القوية الحَبْك عن الخير كي يظل الإثمُ هداية الجدل إلى آلاته. حَمَلةُ أكفانٍ، وخيرٌ صرف، خالصٌ، نقيٌّ، لا أمل للخطيئة معه في أن تحظى بقُبلة على قدَم الغفران: إمّا بدليس، أو الفردوس.

وقد جرفوا، في الطريق إلى الفردوس، خزائن الإمارات المطمئنة والقلقة، والكثير الكثير من السهول الحائرة وأخواتها الحقول.

«بمَ سيبادلون رهينةً في أرض ميدو؟»، تمتم أردهان شاحباً.

«أن يأخذوه معهم، أو يقتلوه، أجدى»، قال الطاهي.

«فليخصوه»، غمغم أويس بلسانٍ لم يتبيّن انحيازُه إلى السخرية أو الفطنة. نزلت الكلمةُ مصكوكةً الى خيال الطاهي. نطق أردهان وهو يلجم انسراحه في شفق المُغْضل: «أستميحكم عذراً على هذا الكدر الخفيف. كلوا هنيئاً، ولا تتوقفوا»، قال لضيوفه، واقتطع عقدةً من أحشاء الضأن.

نهض أويس. «إذا أصرُّوا على إبقاء الرهينة هنا، سأدربه على الغناء لنزلاء الخان»، وألقى شبكة بصره، من العين اليسرى، على مجرّات الخفيّ الظاهر. همس من حنجرته المشجوجة الخيال بنظمٍ ملحونٍ، في انصرافه:

«الطيرُ يعرف أنه طيرٌ،

فلا تُلِحَّ عليه أنك تعرف أنّه طيرٌ، أيها المتلمِّسُ جناحيكَ المفقودين».